
سلسلة الدروس الدينية
في
العقائد الإسلامية
تأليف
ناصر مكارم الشيرازي
منشورات
مؤسسة النور للمطبوعات
ص.ب: ٨٦٤٥
بيروت - لبنان



مؤسسة النور للمطبوعات
بيروت. شارع المطار. قرب كلية الهندسة ص. ب - ١١/٨٦٤٥

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الإسلامية

القسم الرابع

معرفة الامامة

الدرس الأول

متى بدأ البحث في الإمامة؟

بعد أن توفي نبي الإسلام انقسم المسلمون إلى فريقين :
فريق قال إن النبي صلى الله عليه وآله لم يعيّن خليفة بعده ، وانه أوكل ذلك إلى الأمَّة كي تختار بنفسها قائداً لها . هذا الفريق هم « أهل السُّنَّة » .

الفريق الآخر قال إن خليفة الرسول صلى الله عليه وآله يجب أن يكون معصوماً مثله من الخطأ والإثم ، عالماً ، قادراً على قيادة الأمَّة قيادة معنوية ومادية ، والحفاظ على مبادىء الإسلام الأصيلة وادامتها .

يقول هؤلاء إن مثل هذا الخليفة يجب أن يعيّنه الله عن طريق رسوله ، وان رسول الله قد فعل ذلك ، وعيّن علياً عليه السلام خليفة له . وهؤلاء هم « الإمامية » أو « الشيعة » .

إن هدفنا من هذه البحوث المكثفة هو أن نتابع هذه القضية على هدى الأدلة العقلية والتاريخية والآيات القرآنية والسُّنّة النبوية .

ولكن قبل الدخول في الموضوع لا بد من الإشارة إلى بضع نقاط :

١ ـ هل البحث في هذا الموضوع يثير الخلاف؟

بعض الناس ما ان يطرق سمعهم الكلام على الإمامة حتى ينبرون فوراً قائلين إن الظرف اليوم لا يسمح بذلك . فاليوم هو يوم وحدة المسلمين ، بينما الكلام على خليفة نبي الإسلام سيكون مدعاة للتفرقة وتشتت الكلمة ، أو ان لنا اليوم أعداء مشتركين يجب أن نوجه اهتمامنا إليهم : الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي . وعليه يجب أن نتجنب المسائل المختلف فيها .

غير أن هذا الطراز من التفكير خطأ محض ، للأسباب التالية :

أولاً : أن ما يسبب الخلاف والتشتت يدخل ضمن البحوث المتعصبة غير المنطقية المثيرة للأحقاد .

أما البحث المنطقي الاستدلالي البعيد عن التعصب واللجاجة والخصام ، والذي يجري في جو من الود الحميم ، فإنه فضلاً عن كونه لا يسبب التفرقة فإنه يقلل مسافة الانفصال ويقوي نقاط الالتقاء المشتركة .

إنني في سفراتي المتكررة لزيارة بيت الله الحرام بمكة ، ومن مباحثاتي مع علماء أهل السنة ، كنت أحسّ ، كما كانوا هم أيضاً يحسون ، بأن هذه المباحثات فضلاً عن كونها ليس لها أي أثر سيء على علائقنا ، فإنها ابعث على التفاهم وحسن الظن ، والتقارب وإزالة ما قد يكون في بعض الصدور من ضغينة .

المهم أن هذه البحوث تنير الكثير من نقاط الالتقاء فيما بيننا ، مما يمكن لنا أن نستند إليها في مواجهة أعدائنا المشتركين .

ينقسم أهل السنة أنفسهم أقساماً أربعة : الحنفية ، والحنابلة ، والشافعية ، والمالكية ، ومع ذلك فإن هذا الانقسام لم يتسبب في تفرقتهم ، وإذا ما اعتبروا فقه الشيعة ، في الأقل ، مذهباً فقهياً خامساً فإن الكثير من العقد والتشتت يزول من الوجود ، كما حدث فعلاً بعد أن خطا مفتي أهل السنة الكبير ، شيخ الأزهر ، الشيخ شلتوت ، تلك الخطوة المهمة بإعلانه المذهب الشيعي مذهباً إسلامياً رسمياً ، فكان بذلك عوناً كبيراً ومؤثراً في عملية التفاهم الإسلامي ، وانعقدت بينه وبين المرحوم آية الله البروجردي ، مرجع عالم التشيّع الكبير ، أواصر الصداقة .

ثانياً : اننا نعتقد أن الإسلام قد تبلور في المذهب الشيعي أكثر من أي مذهب آخر . وفي الوقت الذي يحترم مذهب الشيعة المذاهب الإسلامية ، فإننا نعتقد أن المذهب الشيعي أقدر على تعريف الإسلام الصادق بجميع أبعاده ، وعلى حل القضايا بالحكومة الإسلامية .

فلماذا لا نعلّم أبناءنا هذا المذهب والمنطق؟ بل اننا إن لم نفعل فقد خنّاهم!

إننا على يقين تام بأن النبي (ص) قد عيّن خليفته من بعده ، فما الذي يحول دون تتبع هذا الموضوع على هدى الاستدلال والمنطق؟ إنما نحن ملزمون في امثال هذه البحوث أن نحذّر كيلا نجرح مشاعر الآخرين المذهبية .

ثالثاً : ان أعداء الإسلام ، لكي يوقعوا بين المسلمين ويفكّوا وحدتهم لم يألوا جهداً في اتهام الشيعة عند أهل السنة بشتى التهم والافتراءات ، كما انهم لم يألوا جهداً في اتهام أهل السنة عند الشيعة بشتى التهم والافتراءات ، بحيث انهم استطاعوا في بعض البلدان ان يحققوا القطيعة بينهم . اننا عندما نعرض موضوع « الإمامة » بالأسلوب الذي سبق ذكره ، نوضح النقاط التي يستند عليها الشيعة لتوثيق رأيهم ، مع أدلة من الكتاب والسنة ، يتبيّن تماماً ان كل تلك الدعاوي كانت كاذبة ، وان أعداءنا المشتركين هم الذين بثوا تلك السموم .

كمثال على ذلك ، لا أنسى انني في إحدى زياراتي للحجاز التقيت أحد كبار رجال الدين السعوديين وجرت بيننا بحوث ، فكان يقول انه سمع أن للشيعة قرآناً يختلف عن قرآنهم .

فاستولى عليَّ العجب ، ولكني قلت له : أخي ، إن التحقق من هذا الأمر سهل للغاية . انني أدعوك شخصياً أو من يمثلك أن تأتي معي ، بعد انتهاء العمرة ، إلى إيران دون اخبار أحد . هناك ستجد في كل شارع وزقاق مسجداً ، وفي كل ، مسجد ستجد عدداً من المصحف الشريف ، كما أن القرآن موجود في بيوت جميع المبلمين . ولسوف نزور أي مسجد شئت ، أو نطرق باب أي منزل أردت ونطلب منهم أن نرى القرآن الذي يتلونه ، وعندئذٍ يتبيّن إن كان هناك أي اختلاف ، حتى في كلمة واحدة أو في حرف واحد ، بين ما عندنا وعندكم من كتاب الله بل ان الكثير من نسخ المصحف الشريف المتداولة عندنا هي من طبع الحجاز أو مصر أو سائر البلاد الإسلامية .

لا شك ان هذا الكلام الاخوي الصادق المنطقي تماماً قد أزال من ذهن أحد الرجالات المعروفين تلك السموم العجيبة .

وعليه ، فإن الحديث فيما يتغلق بالإمامة ـ بالأسلوب الذي ذكرناه ـ يقوي وحدة المسلمين ويساعد على إلقاء الضوء على الأمور ويضيق من شقة التباعد .

٢ ـ ما هي الإمامة؟

« الإمام » كما هو واضح من الكلمة ، هو الذي يقتدي به في الإسلام ويتقدم المسلمين ويقودهم . وفي عقائد الشيعة يطلق « الإمام المعصوم » على من يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله في كل شيء ، سوى أن النبي هو مؤسس الإسلام ، والإمام حافظه وحاميه ، والنبي يتلقى الوحي ، والإمام لا يأتيه الوحي ، بل يأخذ تعليماته من رسول الله صلى الله عليه وآله ويمتاز بعلم غزير خارق للعادة .

الإمام المعصوم ، عند الشيعة ، لا يعني رأس الحكومة الإسلامية فحسب ، بل هو القائد «المعنوي» و«المادي» و«الظاهري» و«الباطني» وقائد كل جوانب المجتمع الإسلامي أيضاً . انه عليه تقع مسؤولية حماية العقائد والأحكام الإسلامية بدون أي خطأ أو انحراف ، وهو عبد اختاره الله من بين عبيده .

إلّا أن أهل السنة لا يفسرون الإمامة هكذا ، وإنما هم يعتبرونه رئيس حكومة المجتمع الإسلامي . وبعبارة أخرى انهم يعتبرون الحكام في كل عصر وزمان خلفاء رسول الله وأئمة المسلمين !

ولسوف نثبت في بحوثنا التالية انه يجب أن يكون في كل عصر وزمان ممثل إلهي نبي أو إمام معصوم ـ على هذه الأرض ، لكي يحرس هذا الدين الحق ، ويهدي السائرين إلى الله . وإذا ما غاب عن الأنظار لسبب من الأسباب ، عهد إلى آخرين بتمثيله في تبليغ الأحكام وتشكيل الحكومة .

فكّر وأجب

١ ـ ما منطق الذين يزعمون أن الوقت ليس وقت الخوض في بحث الإمامة؟

٢ ـ كم جواباً استدلالياً عندنا لإثبات ضرورة القيام بهذا البحث في مواجهة منطق أولئك؟

٣ ـ كيف أوقع أعداء الإسلام الفرقة بين المسلمين؟ وكيف يمكن ردم الهوة بينهم؟ .

٤ ـ هل تتذكر أمثلة على ما قام به الأعداء لتفريق المسلمين؟

٥ ـ ما الاختلاف في معنى «الإمامة» عند الشيعة وعند أهل السنة؟

* * *

الدرس الثاني

فلسفة وجود الإمام

إن البحوث التي أثبتنا بها ضرورة بعث النبيين تبيّن كذلك إلى حد كبير ضرورة وجود الإمام بعد النبي ، لأن الموضوعين يشتركان في جانب مهم من المناهج ، إلَّا أن موضوع الإمامة يتطلب مزيداً من البحث :

١ ـ التكامل المعنوي إلى جانب وجود القادة الإلٰهيين :

قبل كل شيء نتوجه إلى الهدف من خلق الإنسان، فهو أساس عالم الخليقة .

إن الإنسان يطوي طريقاً طويلاً كثير المنعطفات والعثرات في سيره نحو الله ، نحو الكمال المطلق ، نحو التكامل المعنوي بجميع أبعاده .

من البديهي انه لا يستطيع أن يقطع هذا الطريق بنجاح بغير هداية قائد معصوم ، ولا ان يطويه بغير معلم سماوي ، لأنه طريق محفوف بالظلمات وبمخاطر الضلال .

صحيح ان الله قد وهب الإنسان العقل والحكمة ، ومنحه وجداناً قوياً مثمراً ، وأرسل إليه كتباً سماوية ، ولكن هذا الإنسان ، مع كل هذه الوسائل التكوينية والتشريعية ، قد يخطىء في تمييز خط سيره ، لذلك فإن وجود دليل معصوم يأخذ بيده يقلل كثيراً من احتمالات الانحراف والضياع . فبناء على ذلك :

« وجود الإمام يكمل الهدف من خلق الإنسان » .

وهذا هو ما يطلق عليه في كتب العقائد اسم «قاعدة اللطف»، ويقصدون بها ان الله الحكيم يمد الإنسان بجميع الأمور اللازمة له لكي يصل إلى هدف الخلق ، ومن ذلك بعث الأنبياء وتعيين الأئمة المعصومين ، وإلّا فإنه يكون قد (نقض الغرض) من ذلك . فتأمل!

٢ ـ حماية الشرائع السماوية :

إن الأديان الإلّهية عند أول نزولها على قلوب الأنبياء تكون أشبه بقطرات المطر النقية الشفافة الزلال التي تمنح الحياة وتربي الروح . ولكنها عندما تدخل المحيط الملوث والأدمغة الضعيفة غير النظيفة تتلوث بالتدريج ، وتضاف إليها الخرافات والأوهام ، بحيث انها تفقد شفافيتها ولطافتها الأولى ، وعندئذٍ لا يبقى لها شيء من جاذبيتها وتفقد الكثير من تأثيرها التربوي ، فلا هي تروي عطش العطاشى ، ولا هي تنبت برعماً لفضيلة .

هٰهنا تتضح ضرورة وجود القائد المعصوم بصفته انه هو الذي يحمي أصالة الدين ، وخلوص المناهج الدينية ، ويحول دون كل اعوجاج وانحراف وفكر وافد ونظرة سقيمة غريبة ، وكل الخرافات

والأساطير ، إذ لو بقي الدين بدون وجود مثل هذا القائد والحامي لفقد في فترة قصيرة أصالته ونقاءه .

ولهذا نجد الإمام علياً عليه السلام يقول في إحدى خطبه :

« اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً ، وإمّا خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيّناته »[1] .

في الواقع ان قلب الإمام ، من هذه الناحية ، أشبه بالخزانة المتينة التي تحفظ فيها الوثائق والمستندات المهمة ، لكي تبقى مصونة من أيدي اللصوص والعابثين والحوادث . وهذا وجه آخر من وجوه فلسفة وجود الإمام .

٣ ـ قيادة الأُمَّة سياسياً واجتماعياً :

لا شك أن الجماعة من الناس إذا لم يكن لها نظام اجتماعي يقف على رأسه قائد قادر ، لا تكون قادرة على إدامة حياتها . ولهذا نجد الأقوام منذ أقدم العصور حتى الآن قد اختاروا لأنفسهم زعيماً وقائداً . وهذا القائد قد يكون صالحاً ، ولكنه كثيراً ما لا يكون . ولطالما استطاع كثير من طالبي الجاه والسلطة استغلال حاجة الناس إلى المرشد والقائد لفرض أنفسهم بالقوة والتزوير على الناس ، فاستحوذوا على أزمة الأُمور في أيديهم . هذا من جهة ، ومن جهة أُخرىٰ ، لكي يتمكن الإنسان من الوصول إلى هدفه المعنوي ، يجب عليه أن لا ينفرد في

(١) نهج البرغة . الكلمات القصار (١٤٧) .

مسيرته ، بل عليه أن ينضم إلى المجتمع في مسيرة عظمى ، لأن طاقات الفرد الفكرية والجسمية والمادية والمعنوية ليست شيئاً يذكر بإزاء طاقات المجتمع الجبارة .

ولكن المجتمع المطلوب هو الذي يسوده نظام سليم ، تتضح فيه مواهب الإنسان ، ويقف بوجه الانحرافات ، ويحافظ فيه على حقوق جميع الافراد ، ويضع الخطط والمناهج للوصول إلى أهدافه الكبرى ، ويعبىء الدافع المحرك في المجتمع ضمن إطار من الحرية يشمل المجتمع كله .

ولما كان الإنسان العادي المعرض للخطأ غير قادر على حمل مثل هذه الرسالة العظيمة ، بدليل ما نراه بأم أعيننا من انحراف قادة العالم السياسيين عن جادة الصواب ، كان لا بد أن يختار الله قائداً معصوماً يضطلع بمهمة الاشراف على تحقيق هذه الرسالة ، بالاعتماد على طاقات البشر الكامنة وأفكار العلماء في الوقت الذي يقف بوجه الانحرافات بحزم .

وهذا وجه آخر من أوجه فلسفة وجود الإمام المعصوم وفرع آخر من فروع « قاعدة اللطف » . ونكرر هنا قولنا انه عند غياب الإمام المعصوم بعلة من العلل وفي ظرف استثنائي ، فإن ما ينبغي أن يفعله الناس واضح أيضاً ، ولسوف نتناول هذا ، إن شاء الله ، في البحوث الخاصة بالحكومة الإسلامية بالشرح والتفصيل .

٤ ـ ضرورة اتمام الحجة :

إن وجود الإمام لا يقتصر على إنارة القلوب المستعدة للهداية والسير في طريق التكامل ، بل يعتبر اتماماً للحجة على الذين

ينحرفون متعمدين عن الطريق السوي ، وذلك كيلا يكون العقاب الذي ينزل بهم بدون سبب ، ولكيلا يعترض معترض منهم انهم لو أخذ بأيديهم مرشد إلّهي ليقودهم إلى طريق الرشاد ، لما ساروا في طريق الانحراف .

أي أن وجود الإمام يقطع الطريق على كل عذر وحجة ، بواسطة بيان الأدلة الكافية ، والتوعية اللازمة لغير الواعين ، وتطمين الواعين وتقوية ارادتهم .

٥ ـ الإمام واسطة الفيض الإلّهي :

كثير من العلماء ، استناداً إلى الأحاديث الإسلامية ، يشبهون وجود النبي والإمام في المجتمع الإنساني ، أو في كل عالم الوجود ، بالقلب بالنسبة لجسم الإنسان .

فالقلب إذ ينبض يرسل الدم إلى جميع العروق ، ويغذي جميع الخلايا في الجسم .

ولما كان الإمام المعصوم ، باعتباره إنساناً كاملاً وطليعة قافلة الإنسانية ، وسبب نزول الفيوضات الإلّهية التي ينهل منها كل فرد على قدر ارتباطه بالنبي أو الإمام ، فلا بد أن نقول انه مثلما كان القلب ضرورياً لحياة الإنسان ، كذلك كان وجود واسطة نزول الفيض الإلّهي ضرورياً في جسد عالم البشرية ، فتأمل!

ينبغي ألَّا يغرب عن البال إن النبي والإمام لا يملكان شيئاً من نفسيهما ليمنحاه للآخرين ، فكل ما عندهما هو من عند الله ، ولكن مثلما كان القلب واسطة إيصال الفيض الإلّهي لسائر

أنحاء الجسم ، كان النبي أو الإمام واسطة أيضاً الفيوضات الإلٓهية لسائر أبناء البشر .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ ما دور الإمام في تكامل الإنسان تكاملاً معنوياً؟
٢ ــ ما دور الإمام في حماية الشريعة الإسلامية؟
٣ ــ ما دور الإمام في مسألة قيادة الحكومة ونظام المجتمع؟
٤ ــ ما معنى إتمام الحجة؟ وما دور الإمام فيه؟
٥ ــ ما هي واسطة الفيض؟ وما هو أفضل تشبيه للنبي والإمام بهذا الشأن؟ .

* * *

الدرس الثالث

شروط الإمام الخاصة وصفاته

قبل كل شيء ينبغي أن نلتفت إلى نقطة مهمة في هذا البحث :

يستفاد من القرآن المجيد بوضوح ان مقام « الإمامة » أرفع مقام يمكن أن يصل إليه إنسان ، أرفع حتى من مقام « النبوة » و « الرسالة » فنحن في حكاية النبي إبراهيم ، محطم الأصنام ، نقرأ :

﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ .

أي إن إبراهيم ، بعد أن طوى مرحلة النبوة والرسالة واجتاز بنجاح مختلف ما امتحنه به الله ، ارتقى إلى هذه المرحلة الرفيعة ، مرحلة مقام الإمامة الظاهرية والباطنية والمادية والمعنوية في قيادة الناس.

نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان ، بالإضافة إلى مقام

النبوة والرسالة ، في مقام إمامة الخلق وقيادتهم . وهناك عدد آخر من الأنبياء بلغوا هذه المرحلة الرفيعة أيضاً .

هذا من جهة ، ومن جهة أُخرىٰ إننا نعلم أن الشروط والصفات اللازمة لتحمل مسؤولية منصب من المناصب تتناسب مع الواجبات والمسؤوليات التي ينبغي على المرء تنفيذها وتحملها ، وكلما كان المنصب أرفع ومسؤولياته أصعب ، كانت الشروط والصفات اللازم توفرها في المنتخب لذلك المقام أهم وأثقل .

فمثلاً يشترط الإسلام فيمن يتسلم منصب القضاء ، وحتى الشاهد وإمام الجماعة ، أن يكون عادلاً . فإذا كان الذي يريد أن يدلي بشهادة ، أو الذي يريد أن يقرأ الحمد والسورة ، يجب أن يكون عادلاً ، فما بالك بالشروط اللازمة لبلوغ مقام الإمامة الخطير الرفيع!

إن الشروط التالية ، على وجه العموم ، لازمة التوفر في الإمام :

١ ـ العصمة من الخطأ والإثم :

الإمام ، كالنبي ، يجب أن يكون معصوماً ، أي ان يكون مصوناً من كل «خطأ» و«إثم» ، وإلَّا ما كان قادراً على أن يكون قائداً ونموذجاً وقدوة وأسوة للناس يعتمدونه ويتبعونه .

لا بد للإمام من أن يستحوذ على قلوب الناس ، فيأتمرون بأمره دون اعتراض . فمن كان ملوثاً بالإثم لا يمكن أبداً أن يبلغ هذا المبلغ في القلوب ولا يكون موضع ثقة الناس واطمئنانهم .

ومن كان في أعماله اليومية عرضة للأخطاء والهفوات ، كيف يمكن أن يوثق به في إدارة أعمال المجتمع ويطمأن إلى آرائه وتنفيذها بدون أي اعتراض؟

إذن ، لا شك في أن النبي يجب أن يكون معصوماً ، وهذا الشرط لازم في الإمام أيضاً ، كما ذكرنا .

هذه المقولة يمكن اثباتها من طريق آخر أيضاً ، وهي طريق « قاعدة اللطف » نفسها التي يستند إليها لزوم وجود النبي والإمام ، وذلك لأن الهدف من وجود النبي والإمام لا يتحقق بدون هذه العصمة فيهما ، وما ذكرناه في الدرس السابق عن فلسفة وجودهما يظل ناقصاً .

٢ ـ العلم الغزير :

الإمام ، كالنبي ، هو الملجأ العلمي للناس ، فلا بد أن يكون عارفاً بجميع أصول الدين وفروعه ، وبظاهر القرآن وباطنه ، وبسنة رسول الله وبكل ما له علاقة بالإسلام معرفة تامّة ، وذلك لأنه حافظ الشريعة وحاميها ، كما هو قائد الناس ومرشدهم .

إن الذين يرتبكون إذا ما واجهوا مشكلة معقّدة ، أو انهم يرجعون إلى الآخرين يطلبون عندهم الحلول ، لأن ما عندهم من علم يقصر عن الإجابة على أسئلة المجتمع المسلم ، ليس لهم ان يتحملوا مسؤولية إمامة الأُمَّة وقيادتها .

الخلاصة هي ان الإمام يجب أن يكون أعلم الناس وأوعاهم لدين الله ، وأن يملأ الفراغ الذي يتركه النبي بأسرع ما يمكن

لكي يستمر الإسلام الصحيح الخالي من كل انحراف في مسيرته .

٣ ـ الشجاعة :

الإمام يجب أن يكون أشجع أفراد المجتمع ، إذ إن القيادة بغير شجاعة غير ممكنة : الشجاعة عند مواجهة الحوادث الصعبة المرة ، الشجاعة عند الوقوف بوجه الأقوياء الغلاظ الظالمين ، الشجاعة في صد الأعداء الداخليين والخارجيين .

٤ ـ الزهد والتحرر :

من المعلوم أن الذين يميلون إلى مباهج الدنيا وزخرفها سرعان ما ينخدعون ويسهل اغراؤهم بالانحراف عن طريق الحق والعدالة بواسطة الترغيب أحياناً والترهيب أحياناً أُخرىٰ . وشخص هذا شأنه يكون في الواقع «أسيراً» للدنيا ، بينما الإمام يجب أن يكون «أميراً» بالنسبة لمتاع الدنيا وبهرجها . انه يجب أن يكون متحرراً من أسر أهواء النفس ومنطلقاً من قيود الثروة والجاه ، لكيلا يستطيع أحد إغراءه ويؤثر فيه ويحمله على الاستسلام والمساومة .

٥ ـ الجاذبية الأخلاقية :

يقول القرآن في رسول الله صلى الله عليه وآله :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ . . . ﴾ [سورة آل عمران ، من الآية : ١٥٩]

إن النبي الذي هو إمام وقائد معاً ليس هو وحده الذي يجب أن يملك ذلك الخلق الرفيع الذي يجذب إليه الناس كما يجذب

المغناطيس الحديد . لا شك أن كل خشونة وسوء خلق فمما يثير النفور والتباعد في الناس يعتبر من العيوب الكبيرة في النبي أو الإمام لذلك فإن الأنبياء والأئمة منزهون عن هذا العيب ، وإلاًّ كان كثير من فلسفة الوجود عبثاً لا طائل تحته .

هذه هي أهم الشروط التي ذكر كبار العلماء انها يجب أن تتوفر في الإمام .

بديهي أن هناك صفات أُخرىٰ غير هذه الصفات الخمس يجب توفرها أيضاً في الإمام ، إلَّا أن هذه أهمها .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما الدليل على أن الإمامة أرفع مقام يمكن أن يبلغه إنسان؟ .

٢ ـ هل كان نبينا وسائر الأنبياء أولي العزم أئمة أيضاً؟

٣ ـ إذا لم يكن الإمام معصوماً فما المشكلات التي تحدث جراء ذلك؟

٤ ـ لماذا يجب أن يكون الإمام ذا علم غزير؟

٥ ـ لماذا يجب أن يكون الإمام أشجع الناس وأزهدهم وأشدهم تحرراً وأحسنهم أخلاقاً وجاذبية؟ .

* * *

الدرس الرابع

من المسؤول عن تعيين الإمام؟

يعتقـــد بعض المسلمين من أهـــل السنــة أن النبـي صلى الله عليـه وآله قـد أغمض عينيه عن هـذه الدنيـا دون أن ينصب خليفـة بعـــده ، ويعتقـدون أن هـــذه المهمـة تقـــع على عـاتق المسلمين أنفسهم ، فهم الـذين عليهم أن يختاروا قـائدهم بـطريق « إجمـاع المسلمين » باعتباره أحد الأدلة الشرعية .

ويضيفـون إلى ذلك قـولهم إن ذلـك قـد حصـل فعـلاً واختيـر الخليفة الأول بإجماع الأمّة .

ثم اختار الخليفة الأول الخليفة الثاني ..

وعيّن الخليفة الثاني شورى مؤلفة من ستـة أشخاص يختـارون أحـدهم . وكـانت هـذه الشـورى تتـألف من علي عليـه السـلام ، وعثمـان ، وعبدالـرحمن بن عوف ، وطلحـة ، والزبيـر ، وسعد بن أبي وقاص .

كـان الخليفة الثـاني قد اشتـرط أنه إذا انقسمت الشـورى كـل

ثلاثة في طرف ، فإن الطرف الذي فيهم عبدالرحمن بن عوف (صهر عثمان) هو الذي يختار الخليفة ، وهذا ما حصل ، إذ الأكثرية المؤلفة من سعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وطلحة اختاروا عثمان .

وفي أواخر عهد عثمان نهض الناس لأسباب مختلفة ضده ، وكان ان قتل قبل أن يستطيع تعيين أحد أو شورى .

وعلى أثر ذلك أقبل الناس برمتهم متجهين إلى الإمام علي عليه السلام ، وبايعوه خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، باستثناء معاوية الذي كان عامل عثمان على الشام ، لأنه كان واثقاً ان علياً لن يبقيه في منصبه . فرفع راية المعارضة ، فكان مصدر حوادث مشؤومة ودموية في التاريخ أدت إلى إراقة دماء الكثيرين من الأبرياء .

هنا تبرز أسئلة كثيرة لا بد منها لالقاء الضوء على البحوث العلمية والتاريخية ، سنورد بعضاً منها :

١ ـ هل للأمَّة أن تختار خليفة رسول الله؟

ليس من الصعب الجواب على هذا السؤال ، فنحن إذا اعتبرنا الإمامة بمعنى الحكم الظاهري على مجتمع المسلمين ، فإن اختيار الحاكم بالرجوع إلى آراء الناس أمر متداول .

ولكن إذا كانت الإمامة بالمعنى الذي شرحناه من قبل والذي استقيناه من القرآن الكريم ، فلا شك في انه ليس لأحد الحق في تعيين خليفة النبي سوى الله ورسوله (وبأمر من الله) .

إذ ان شرط الإمامة بحسب هذا التفسير هو العلم الوافر

بجميع أصول الدين وفروعه ، ذلك العلم الذي ينبع من مصدر سماوي ويستند إلى علم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لكي يستطيع الحفاظ على الشريعة الإسلامية .

الشرط الآخر هو معصومية الإمام ، أي ان يكون مصوناً صيانة إلهية ضد كل خطأ وإثم لكي يستطيع أن يتحمل مسؤولية مقام الإمامة وقيادة الأمَّة قيادة معنوية ومادية وظاهرية وباطنية ، كما يجب أن يكون متمتعاً بالزهد والتحرر والتقوى والجرأة ، مما هو لازم لمن يتصدى للاضطلاع بمهمات هذا المنصب الجليل .

إن تمييز هذه الصفات في شخص ما ليست مستطاعة إلاَّ بواسطة الله ورسوله ، فهو الذي يعلم في من وضع صفة العصمة ، وهو الذي يعلم في من يتوفر حد النصاب من العلم والزهد والتحرر والشجاعة والجرأة اللازمة لمقام الإمامة .

إن الذين عهدوا باختيار الإمام والخليفة إلى الناس قد غيروا في الحقيقة المفهوم القرآني للإمامة ، وقصروا هذا المفهوم على الحكم العادي وإدارة شؤون الناس الدنيوية ، وإلاَّ فإن شروط الإمامة بمعناها الجامع الكامل لا تعرف إلاَّ عن طريق الله تعالى ، لأنه هو العالم بهذه الصفات .

إن القضية أشبه بانتخاب النبي ، فالنبي لا يمكن أن ينتخبه الناس بالتصويت ، بل الله هو الذي يختاره ، ويتعرف عليه الناس عن طريق معجزاته ، لأن الصفات اللازم توفرها في النبي لا يعرفها إلاَّ الله .

٢ ـ ألم يعين النبي أحداً ليخلفه؟

إن الدين الإسلامي ، ولا شك ، دين « عالمي » و « خالد »

ولا يقتصر على زمان ولا مكان معينين ، كما يصرح القرآن بذلك .

ولا شك أيضاً في أن الدين الإسلامي لم يكن قد تجاوز شبه الجزيرة العربية عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله .

ومن جهة أخرى نجد أن النبي أمضى ثلاث عشرة سنة من عمره الشريف في مكة يحارب الشرك وعبادة الأصنام ، والسنوات العشر التالية التي بدأت بالهجرة واستغرقت فترة تفتح الإسلام ، أمضاها رسول الله صلى الله عليه وآله هي الغزوات والحروب التي فرضها على المسلمين أعداؤهم .

وعلى الرغم من أن الرسول الأكرم لم يترك لحظة من عمره الشريف دون أن يستغلها لنشر الدعوة والتعاليم الإسلامية ، والسعي لتعريف الإسلام الفتى بجميع أبعاده . ولكن الذي لا شك فيه أن تحليل كثير من المسائل الإسلامية كان يتطلب إلى زمان أطول ، فكان لا بد لشخص مثل النبي (ص) ان يضطلع بهذه المهمة بعده .

وفضلاً عن ذلك ، فإن التنبؤ بمستقبل الأُمَّة ، وإعداد المقدمات للاستمرار في إدامة مدرسة الإسلام ، كان من أهم الأُمور التي لا بد أن يفكر فيها كل قائد . ولا يمكن أبداً أن يسمح لهذه المسألة الأساس أن يلفها النسيان .

وإذا تجاوزنا عن كل ذلك ، نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان أحياناً يصدر تعليمات خاصة في كثير من الأُمور البسيطة العادية في الحياة اليومية ، فكيف يمكن أن يهمل قضية

مهمة كقضية الخلافة والزعامة والإمامة ولا يضع لها منهاجاً خاصاً؟

كل هذه النظرات الثلاث دليل واضح على أن النبي الكريم لا يمكن أن يهمل تعيين الخليفة من بعده .. ولسوف نذكر ان شاء الله روايات إسلامية مؤكدة تلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع، وتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يغفل طوال حياته عن هذه المسألة المصيرية ، على الرغم من المساعي السياسية التي جرت بعد الرسول كي تدخل في أذهان الناس أن رسول الله لم يعين خليفة بعده .

أيصدق أحد أن رسول الله (ص) لم يترك المدينة لبضعة أيام (مثل ذهابه إلى غزوة تبوك) إلَّا بعد أن عيّن من يقوم مقامه فيها ، ولكنه لا يعين أحداً ليخلفه بعد مغادرة الدنيا نهائياً ، بل يترك الأُمَّة نهب الاختلافات والاضطرابات والحيرة ، دون أن يضمن للإسلام استمراريته على يد هاد ومرشد يعتمده؟

لا يشك أحد أن عدم تعيين خليفة ينطوي على أخطار كبيرة على الإسلام اليافع ، ان العقل والمنطق يحكمان بأن أمراً كهذا يستحيل صدوره من نبي الإسلام .

إن الذين يقولون انه عهد بذلك إلى الأُمَّة عليهم ان يبينوا أدلتهم ويثبتوا أن رسول الله (ص) قد صرَّح بذلك علانية ، ولكن ليس ثمة دليل من هذا القبيل .

٣ ـ الاجتماع والشورى :

لنفرض أن رسول الإسلام أغمض عينيه عن هذا الأمر

الحيـوي ، وأن المسلمين هم المـطلوب منهم ان يختــاروا خليفـة رسـول الله عن طريق الاجمـاع. ولكننـا نعلم أن «الاجمـاع» يعني اتفـاق المسلمين ، ولكننا نعلم أيضـاً أن اجماعـاً كهذا لم يحصـل عند انتخاب الخليفـة الأول، إلاّ اللهم ما حصـل عند اجتمـاع عدد من الصحابة الذين كانـوا في المدينـة ، حيث قرروا قـرارهم ، مع أن سـائر المسلمين في سـائر بـلاد الإسلام لم يشـاركوا مـطلقاً في هـذا الاجتماع ولا في الإدلاء بـآرائهم ، بل إن في المـدينة نفسهـا كـان كثيـرون ، كـالإمـام علي عليـه السلام وبني هـاشم ، لم يحضـروا ذلك الاجتمـاع وعليـه ، فـإن إجمـاعـاً كهـذا لا يمكن قبوله .

ثم إذا كـان هذا الأسلوب هـو الصحيح الـذي يجب اتباعـه ، فلمـاذا لم يتبعـه الخليفـة الأول في انتخـاب خليفتـه ؟ لمـاذا عين بنفسـه خليفته؟ فـإذا كان يجـوز للفرد أن يعين خليفـة ، فقـد كـان النبي أولى اذن بـذلك من أي فـرد آخر، وإذا كـانت البيعة العـامـة التي تلي الانتخـاب تحل المشكلة ، فـإن ذلك وارد أيضـاً بالنسبـة للنبي ، وعلى وجه أفضل .

ثم فضـلاً عن ذلـك تبـرز المشكلة الثـالثـة بـالنسبـة للخليفـة الثـالث ، وهي لماذا خـالف الخليفة الثـاني الأسلوب الـذي اتبعـه الخليفة الأول في انتخاب الخليفة الثاني نفسـه ، وكسر السنّة التي أتت بــه إلى الخـلافــة ، أي انـه لم يلتـزم الاجمـاع ولا التعيين الفردي ، بل جاء بمجلس الشورى ليقوم بذلك؟

إذا كـانت «الشورى» صحيحـة ، فلماذا تقصـر على أشخـاص ستة يعينهم ، وان يكتفي برأي ثلاثة من ستة؟

هذه أسئلة لا بد أن تخطر ببال كل باحث ومحقق يتعامل مع التاريخ الإسلامي ، وبقاؤها دون جواب يدل على أن تلك الأساليب لم تكن هي الطريق الأمثل لنصب الإمام .

٤ ـ الإمام علي (ع) أليق الجميع :

لنفرض أن نبي الإسلام لم يعين أحداً يخلفه من بعده ، ولنفرض أن اختيار الخليفة كان على عاتق الأُمَّة ، فهل يجوز عند الانتخاب أن نتجاوز الأعلم والأتقى والأكثر تميزاً عن الآخرين من جميع الوجوه ، لنبحث عن الخليفة بين من هم يأتون بعده في المرتبة؟

لقد صرَّح كثير من علماء المسلمين ، بما فيهم علماء أهل السنة ، بأن علياً كان أعلم الناس بالدين الإسلامي ، كما أن آثاره الباقية منه تؤكد هذا القول. يقول التاريخ انه كان ملجأ الأُمَّة في كل مشكلة علمية ، وان الخلفاء كانوا يرجعون إليه إذا ما واجهتهم معضلة دينية معقّدة .

وكان في الشجاعة والجرأة والتقوى والزهد والصفات البارزة الأُخرىٰ أسمى منزلة من غيره . وعليه ، إذا فرضنا أن انتخاب الخليفة كان موكولاً إلى الناس أنفسهم ، فإن علياً كان أليق الموجودين وأجدرهم بالخلافة (هنالك بالطبع الكثير من الأدلة والأسانيد الأُخرىٰ الواسعة بهذا الشأن مما لا مجال لذكرها في هذا الموجز) .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ لماذا ليس للناس أن يختاروا الإمام وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ .

٢ ـ هل يقول العقل والمنطق أن النبي الكريم قد عيّن خليفته من بعده أم لا؟

٣ ـ كيف تم اختيار الخلفاء الثلاثة الأول؟

٤ ـ هل كانت أساليب انتخابهم مطابقة للموازين العلمية الإسلامية؟

٥ ـ كيف كان علي (ع) أليق الجميع للخلافة؟

* * *

الدرس الخامس

القرآن والإمامة

القرآن هذا الكتاب السماوي ، خير مرشد وهاد في كل أمر ، وفي الإمامة أيضاً ، فهو يبحثها من مختلف الجوانب :

١ ـ القرآن يرى الإمامة اختياراً إلَهياً :

سبق أن قرأنا حكاية النبي إبراهيم (ع) محطم الأصنام في البحوث السابقة وعرفنا أن القرآن يعتبر أن مقام الإمامة والقيادة لا ينالها إبراهيم (ع) إلَّا بعد نيله مرتبة النبوة والرسالة وأداء امتحانات كبرى ، ففي الآية ١٢٤ من سورة البقرة يقول :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ .

هنالك قرائن قرآنية وتاريخية مختلفة تؤكد أنه نال مرتبة الإمامة بعد أن حارب عبدة الأصنام في بابل ، وبعد هجرته إلى الشام ، وبنائه الكعبة ، وأخذ ابنه اسماعيل ليذبحه قرباناً لله .

فإذا كانت النبوة والرسالة من جانب الله ، فمن الأولى أن يكون تعيين مقام الإمامة ـ الذي يعتبر أعلى مراحل التكامل في قيادة الأُمَّة ـ من جانب الله أيضاً فهو ليس من الأُمور التي يمكن أن يوكل تنفيذها إلى الناس . ولذلك فإن الله يقول مخاطباً إبراهيم :

﴿ إنِّي جَاعلك للنَّاس إماماً ﴾ .

كذلك يقول القرآن في الآية ٧٣ من سورة الأنبياء وهو يتحدث عن جمع من الأنبياء العظام : إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب :

﴿ وَجَعَلْنَاهُم أَئِمَّة يَهدُون بِأَمْرِنا ﴾ .

وفي القرآن آيات أُخرىٰ شبيهة بهذه تدل كلها على أن هذا المنصب إلّهي وان الله هو الذي يعين من يشاء لهذا المقام .

كما أننا في الآية نفسها التي ينال فيها إبراهيم مقام الإمامة ، نقرأ أن إبراهيم طلب هذا المنصب لذريته ، ولكن جواب الله كان ﴿ لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِين ﴾ أي ان طلبك قد أُجيب إلَّا فيما يخص الظالمين من ذريتك ، فإنهم لن يصلوا إلى هذا المقام الرفيع .

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن تعبير «ظالم» في اللغة عموماً وفي لغة القرآن يشمل مساحة واسعة من المعاني ، بما فيها الذنوب كالشرك الظاهر والخفي وكل ظلم للنفس وللآخرين ، وإذا أخذنا أيضاً بنظر الاعتبار أن معرفة هذه الحالات معرفة تامّة لا تتأتى لأحد سوى الله ، لأنه هو وحده العالم ببواطن الناس ونياتهم ،

يتبيّن لنا جلياً أن تعيين الإمام لمقام الإمامة لا يكون إلاّ بأمر من الله .

٢ ـ التبليغ :

نقرأ في الآية ٦٧ من سورة المائدة ما يلي :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

تدل لهجة هذه الآية على أن الكلام يدور على مهمة خطيرة موضوعة على عاتق رسول الله صلى الله عليه وآله ، وانها مهمة تثير ما يقلق البال ، وقد تواجه معارضة بعض الناس ، ولذلك تطمئن الآية خاطر الرسول بقولها : **﴿ والله يعصمك من النّاس ﴾** مع التوكيد على ضرورة أداء المهمة .

لا شك أن هذه المسألة المهمة لم تكن تتعلق بقضايا التوحيد والشرك ومحاربة الأعداء من اليهود والمنافقين وغير ذلك ، لأن هذه المسائل كانت كلها قد حلّت قبل نزول هذه الآية من سورة المائدة .

ثم إن إبلاغ أحكام الإسلام للناس لم يكن يوماً مصحوباً بمثل هذا القلق والتوجس ، بينما يتبيّن من الآية أن المهمة كانت على قدر من الأهمية بحيث انها لا تقل وزناً عن أداء الرسالة برمتها ، بحيث لو انه لم يؤد تلك المهمة لكان كأنه لم يؤد الرسالة نفسها . فهل هناك ما يمكن أن تكون له مثل هذه الأهمية

سوى مسألة تعيين خليفة رسول الله؟ خاصة وان الآية قد نزلت في أواخر عمر النبي ، أي في الوقت المناسب لتعيين من يخلف النبي من بعده ، للاطمئنان على استمرار النبوة والرسالة .

ثم إن هناك روايات كثيرة عن فريق كبير من أصحاب رسول الله (ص) ، منهم «زيد بن أرقم» و«أبو سعيد الخدري» و«ابن عباس» و«جابر بن عبدالله الأنصاري» و«أبو هريرة» و«حذيفة» و«ابن مسعود» ، وبعض هذه الروايات قد وصل إلينا عن أحد عشر طريقاً ، نقلها كثير من علماء أهل السنة من المفسرين والمحدثين والمؤرخين ، وكلها تقول ان هذه الآية نزلت بحق علي (ع) يوم الغدير[1] .

وسوف نشرح حكاية «الغدير» إن شاء الله في بحث الروايات والسنة ، إلاّ اننا هنا نكتفي بالقول بأن هذه الآية تكشف عن أن النبي كان قد أمره الله ، أثناء عودته من حجة الوداع ، أي آخر حجة له في عمره ، ان يعلن عن تنصيب علي (ع) خليفة له من بعده بصورة رسمية وعلى ملأ من المسلمين .

٣ ـ آية إطاعة أولى الأمر :

في الآية ٥٩ من سورة النساء نقرأ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ . . . ﴾ .

(١) انظر في ذلك «إحقاق الحق» و«الغدير» و«المراجعات» و«دلائل الصدق» .

هنا نلاحظ إن إطاعة أولي الأمر قد جاءت إلى جانب إطاعة الله ورسوله بدون أي قيد أو شرط. فهل المقصود من أولي الأمر هم الحكام في كل عصر وفي كل محيط؟ فمثلاً هل على المسلمين في هذا العصر وفي مختلف البلدان أن يطيعوا حكامهم بدون قيد ولا شرط؟ (كما يقول بعض مفسري أهل السنة).

إن هذا التفسير لا ينسجم مع أي منطق ، إذ إن أكثر الحكام في مختلف العصور كانوا حكاماً منحرفين ، ملوثين بالإثم ويتبعون الظلم والظالمين .

فهل المقصود إذن إطاعة الحكام على شرط أن لا يكون حكمهم مخالفاً لأحكام الإسلام؟ هذا أيضاً لا يأتلف مع إطلاق الآية .

فهل المقصود هم صحابة الرسول (ص)؟ هذا المفهوم أيضاً لا يتلاءم مع المفهوم العام الواسع الذي تنطوي عليه الآية والخاص بمختلف العصور .

بناء على ذلك يتبيّن لنا بوضوح أن المقصود هو القائد المعصوم الموجود في كل عصر وزمان ، فهو الذي تجب إطاعته بدون قيد ولا شرط ، وأمره كأمر الله ورسوله ، واجب التنفيذ .

إن الأحاديث الكثيرة الواصلة إلينا من مصادر إسلامية متعددة بهذا الشأن والتي تفسر « أولي الأمر » بالإمام علي (ع) والأئمة المعصومين ، دليل آخر يؤيد هذا الادعاء[1] .

(٤) لمزيد من الإيضاح انظر «تفسير نمونة» ج ٣ ص ٤٣٥ . .

٤ ـ آية الولاية :

نقرأ في الآية ٥٥ من سورة المائدة :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ .

باستعمال « إنما » الدالة على الحصر ، يحصر القرآن ولاية المسلمين ورعايتهم بثلاثة : الله ، والرسول ، والذين آمنوا ويعطون الزكاة أثناء ركوعهم .

لا شك أولاً أن « الولاية » هنا لا تعني المحبة بين المسلمين ، لأن تبادل المحبة بين عامة المسلمين لا يستوجب هذه القيود والشروط ، فالمسلمون أُخوة يحب بعضهم بعضاً ، وإن لم يدفعوا زكاة أثناء الركوع ، وبناء على ذلك ، فالولاية هنا تعني القيادة والإمامة المادية والمعنوية ، خاصة انها جاءت في مصاف « ولاية الله » و « ولاية الرسول » .

كما انه من الواضح أيضاً أن هذه الآية ، بالأوصاف التي وردت فيها ، تشير إلى شخص معيّن بذاته ، وهو الذي كان راكعاً عندما أعطى الزكاة ، وإلاَّ فليس هناك ما يدعو الإنسان إلى أن يعطي زكاته عندما يصلي وعند الركوع من صلاته . وهذا في الواقع علاقة ، وليس صفة عامة .

مجموع هذه القرائن يدل على أن هذه الآية إشارة عميقة المعنى إلى حكاية علي (ع) ، وهي انه فيما كان راكعاً في

صلاته سمع فقيراً يطلب الصدقة من المصلين ، إلَّا أن أحداً لم يسعفه بشيء ، فمد الاصبع الصغير من يده اليمنى ، أثناء ركوعه ، إلى ذلك الفقير مشيراً إليه أن يأخذ خاتماً ثميناً كان يلبسه في إصبعه ، فأخذه الفقير وانصرف ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد لحظ ما جرى بجانب عينه ، وعند انتهاء الصلاة رفع رأسه إلى السماء وقال :

« اللهم إن أخي موسى سألك فقال : رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري ، فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً : سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكم . اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري . . . » .

لم يكد رسول الله (ص) ينتهي من دعائه حتى نزل جبرئيل بالآية المذكورة .

وانه لمما يلفت النظر أن كثيرين من كبار مفسري أهل السنة ومحدثيهم ومؤرخيهم يؤيدون كون الآية قد نزلت في علي (ع) . وهناك جماعة من أصحاب رسول الله (ص) في نحو عشرة أشخاص نقلوا هذا الحديث عن رسول الله (ص) مباشرة .

إن الآيات النازلة في الولاية كثيرة ، اكتفينا بإيراد أربع منها في هذا الدرس .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ من الذي له أن يعيّن الإمام وينصبه ، في نظر القرآن؟ .

٢ ـ ما هي الظروف التي أحاطت بنزول آية التبليغ، وما محتواها؟ .

٣ ـ من هم الذين يكون من المعقول ان نطيعهم بدون قيد ولا شرط؟

٤ ـ كيف نستدل من آية « إنّما وليكم الله » انها تشير إلى القيادة والإمامة؟

٥ ـ ما الذي يمكن أن نستنتجه من مجموع الآيات الخاصة بالولاية؟

الدرس السادس

الإمامة في السنة

عند مطالعة الكتب الخاصة بالأحاديث الإسلامية ، وعلى الأخص كتب المصادر عند اخواننا أهل السنة ، يواجه المرء حشداً كبيراً من الأحاديث النبوية التي تثبت امامة علي (ع) وخلافته بوضوح لا مزيد عليه .

وإن المرء ليأخذه العجب من أنه مع كثرة هذه الأحاديث التي لا تدع مجالاً للشك في المسألة ، كيف حاول بعضهم أن يختار طريقاً غير طريق أهل البيت!

إن هذه الأحاديث التي تؤكد بعضها مئات الأسانيد (مثل حديث الغدير) ويؤكد بعضها الآخر عشرات الأسانيد ، وهي واردة في عشرات الكتب الإسلامية المشهورة ، من الوضوح بحيث اننا لو تغاضينا عن أقاويل هذا وذاك ، وأهملنا التقاليد ، تكون القضية على درجة من الجلاء لا نحتاج معها إلى أي دليل آخر .

إننا نذكر فيما يلي نماذج لعدد من الأحاديث المعروفة من

بين الوافر الكثير منها ، طالبين من الذين يريدون الاطلاع أكثر على هذا الموضوع أن يرجعوا إلى المصادر التي سنذكرها لهم[1] .

حديث الغدير :

يقول الكثير من المؤرخين إن رسول الله صلى الله عليه وآله أدى فريضة الحج في آخر سنة من سنوات عمره الشريف . وبعد الانتهاء من الحج ، رجع ومعه جماعات غفيرة من أصحابه القدامى والجدد والمسلمين المولعين به الذين كانوا قد اجتمعوا من مختلف نقاط الحجاز ليلحقوا برسول الله (ص) في أداء فريضة الحج . وعند وصولهم إلى مكان بين مكة والمدينة اسمه (الجحفة) ، تقدمهم نحو (غدير خم) حيث كانت الطريق تتفرق ، فيتفرق عندها الناس كل إلى وجهته .

ولكن قبل أن يتفرق الناس من هناك إلى انحاء الحجاز ، أمر الرسول الناس بالتوقف ودعا الذين سبقوه إلى الرجوع ، وانتظر حتى لحق به الذين كانوا في الخلف . كان الجو حاراً جداً ومحرقاً ، ولم يكن في تلك الصحراء المترامية ما يستظل به . أدى المسلمون صلاة الظهر مع رسول الله (ص) . وعندما أراد الناس الانصراف إلى خيامهم فراراً من حرارة الجو ، أخبر النبي (ص) إن عليهم أن يستمعوا إلى بلاغ مهم جديد من جانب الله في إحدى خطبه المسهبة .

أقيم لرسول الله منبر من أحداج الإبل ، فارتقاه ، وبعد أن

(١) لمزيد من الشرح راجع كتاب «المراجعات» و « الغدير» .

حمد الله وأثنى عليه ، وقال من جملة ما قال :

« . . . أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبيّن لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا . أنا مسؤول وأنتم مسؤولون . ترى كيف تشهدون لي؟

فرفع الناس أصواتهم قائلين :

نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً .

فقال النبي صلى الله عليه وآله :

أتشهدون بأن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله ، وأن الله سيبعث من في القبور يوم القيامة؟

فقال جميعاً : **نعم نشهد بذلك.**

فقال : اللهم اشهد! ثم سألهم : أيها الناس ، أتسمعون صوتي؟ قالوا : نعم .

وساد الجمع صمت لم يسمع خلاله شيء سوى صوت هبوب الريح وأخيراً قال النبي صلى الله عليه وآله :

أنبئوني ما تفعلون بعدي بهذين الثقلين العظيمين اللذين سأتركهما بين ظهرانيكم؟

فقال رجل من بين الجمع وقال :

أي ثقلين تعني يا رسول الله؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :

الثقل الأول هو الثقل الأكبر ، كتاب الله ، القرآن ، ما ان

أخذتم به لن تضلوا . والثقل الثاني هو عترتي ، آل بيتي . ولقد أخبرني اللطيف الخبير بأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، إن سبقتموهما هلكتم ، وإن تخلفتم عنهما هلكتم .

ثم نظر النبي صلى الله عليه وآله إلى أطرافه كأنه يبحث عن شخص ، فلما وقع بصره على علي عليه السلام انحنى وأمسك بيده ورفعها حتى بان بياض إبطيهما ، فرآه الناس وعرفوه .

وارتفع صوت النبي صلى الله عليه وآله وهو يقول : أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ .

فقالوا : الله ورسوله أعلم .

فقال : **إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، أولى بهم من أنفسهم . فمن كنت مولاه فعلي مولاه .**

وكرر هذا القول ثلاث مرات . وقال بعض الرواة أنه كرره أربع مرات ثم رفع رأسه الشريف إلى السماء وقال :

اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار .

ثم قال : ألا هل بلّغت؟

قالوا : نعم .

قل : فليبلغ الشاهد الغائب .

وقبل ان يتفرق الجمع نزل جبرئيل الأمين بالآية التالية على رسول الله صلى الله عليه وآله :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي. . . ﴾

فقال النبي صلى الله عليه وآله :

الله أكبر ، الله أكبر ، على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضى الرب برسالتي والولاية لعلي من بعدي .

فحصل هرج ومرج بين الناس وراحوا يتزاحمون لتهنئة علي عليه السلام بالولاية . وكان منهم أبو بكر وعمر ، اللذان تقدما إلى علي عليه السلام يقولان : بخ بخ لك يا ابن أبي طالب ، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة!

هذا الحديث أورده عدد كبير من علماء الإسلام في كتبهم ، بعض بصورة مسهبة وبعض باختصار شديد ، وبشيء من الاختلاف في بعض الألفاظ . ويعتبر من الأحاديث المتواترة التي لا يمكن لأحد أن يشك في صدوره عن رسول الله (ص) ، إلى درجة أن العلامة (الأميني) في كتابه «الغدير» يذكر اسم مئة وعشرة من أصحاب رسول الله (ص) ممن ذكروا هذا الحديث ، وثلاثمائة وستين عالماً وكتاباً ورد فيه هذا الحديث أيضاً ، ومنها كتب الاخوة أهل السنة في التفسير والتاريخ والحديث . بل إن جمعاً كبيراً من علماء الإسلام ألفوا الكتب الخاصة بهذا الحديث ، منها كتاب العلامة الأميني «الغدير» المتعمق والنادر المثال ، فإنه يشير فيه إلى ستة وعشرين عالماً من علماء الإسلام ممن ألفوا الكتب الخاصة بحديث الغدير .

ولقد سعى بعض ممن لم يستطيعوا بث الشكوك حول صحة أسانيد هذا الحديث ، إلى إلقاء الشكوك في دلالته على الإمامة

والخلافة ، واعتبار كلمة «مولى» تعني «الصديق» مع إن التدقيق في مضمون الحديث والظروف الزمانية والمكانية التي أحاطت بالحديث وقرائن أخرىٰ تدل بحق على أن الهدف لم يكن سوى الإمامة والولاية التي تعني القيادة بكل ما فيها من معان :

أ ــ إن آية التبليغ التي سبق أن ذكرناها ، والتي نزلت قبل حادثة الغدير ، تدل بلهجتها الحادة وما فيها من القرائن على أن الكلام لم يكن بشأن الصداقة العادية ، إذ ان هذا لم يكن مما يستوجب كل تلك الأهمية والتوكيد . كما أن الآية الخاصة بإكمال الدين التي نزلت بعد آية التبليغ تدل دلالة قاطعة على أن الموضوع كان على درجة عظيمة من الأهمية ، كموضوع القيادة والخلافة بعد رسول الله (ص) .

ب ــ الطريقة التي وصفت بها الحديث ، بكل ظروفه والصحراء المحرقة التي ألقيت فيها تلك الخطبة المسهبة ، وأخذ الإقرار من الناس في ذلك الجو وذلك المكان ، كلها تدل على صحة ما نذهب إليه .

ج ــ التهاني والتبريكات التي قدمت لعلي (ع) من جانب مختلف طبقات الحاضرين ، والقصائد الشعرية التي قيلت بالمناسبة في ذلك اليوم وبعده ، تدل على أن الحدث واقعي وانه يخص تنصيب علي (ع) في مقام الولاية والإمامة ، ولا شيء غير ذلك .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ اشرح حكاية الغدير.

٢ ــ كم عدد أسانيد حديث الغدير عن رسول الله (ص) وفي كم كتاباً من الكتب الإسلامية المشهورة ورد هذا الحديث؟

٣ ــ لماذا لفظة «المولى» في حديث الغدير تعني القيادة والإمامة، لا الصداقة؟.

٤ ــ ما الدعاء الذي دعا به رسول الله (ص) بحق علي (ع) بعد حادثة الغدير؟

٥ ــ أين تقع «الجحفة» و«الغدير»؟

* * *

الدرس السابع

حديث «المنزلة» وحديث «يوم الدار»

يورد كثير من كبار مفسري أهل السنة والشيعة حديث «المنزلة» عند تفسير الآية ١٤٢ من سورة الأعراف ، والتي تتعلق بذهاب موسى (ع) أربعين ليلة إلى ميعاد الله وخلافة هارون له .

مضمون الحديث كما يلي :

تحرك رسول الله (ص) نحو تبوك (وهي تقع في شمال جزيرة العرب وتحادد امبراطورية الروم). كان النبي (ص) قد أخبر بأن امبراطور الروم قد جاء بجيش عظيم يريد به أن يهاجم الحجاز ومكة والمدينة ، لكي يخنق الثورة الإسلامية في مهدها قبل أن يصل برنامجها الإنساني والتحرري إلى تلك المنطقة . فتحرك النبي (ص) إلى تبوك ، تاركاً علياً بمكانه فقال علي : اتتركني بين النساء والأطفال ، ولا تسمح لي بالاشتراك في الجهاد معك؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله :

« ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلاَّ انه لا نبي بعدي » .

هذه العبارة مذكورة في أشهر كتب الحديث عند أهل السنة ، مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم ، إنما الاختلاف بينهما هو أن صحيح البخاري يورد الحديث كله، بينما صحيح مسلم يورد الحديث كله مرة، ويورد عبارة «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا انه لا نبي بعدي» مرة أُخرىٰ ، كتعبير عام وكلي[1] .

كما جاء هذا الحديث في عدد كبير من كتب أهل السنة ، منها «سنن ابن ماجه» و«سنن الترمذي» و«مسند أحمد» وغيرها . والذين يروون الحديث عن الصحابة يزيد عددهم على العشرين ، منهم (جابر بن عبدالله الأنصاري) و (أبو سعيد الخدري) و (عبدالله بن مسعود) و (معاوية) .

ينقل (أبو بكر البغدادي) صاحب « تاريخ بغداد » عن « عمر بن الخطاب » : انه رأى رجلاً يشتم علياً (ع) ، فقال له عمر : لا أراك إلّا من المنافقين ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :

« إنّما علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلّا إنه لا نبي بعدي »[1] .

ومما يستلفت النظر في أشهر كتب الحديث المعتبرة أن هذا الكلام لم يقله رسول الله (ص) بمناسبة غزوة (بتوك) فقط ، بل انه كرره سبع مرات في سبع مناسبات مختلفة ، مما يدل على

(١) «صحيح البخاري » ، ج٦ ص ٣ وصحيح مسلم، ج١ ص ٤٤ وج ٤ ص ١٨٧ .

(١) «تاريخ بغداد» ج ٧ ص ٤٥٢ .

مفهومه العام ومن تلك المناسبات :

١ ـ « يوم المؤاخاة » الأولى في مكة ، أي في اليوم الذي عقد فيه عهد الأخوة بين أصحابه ، واختار علياً (ع) لاخوّته ، وذكر هذه العبارة نفسها .

٢ ـ «يوم المؤاخاة » الثانية بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، إذ تكررت الحالة وكرر رسول الله (ص) تلك العبارة .

٣ ـ في اليوم الذي أمر فيه رسول الله (ص) بغلق أبواب البيوت التي كانت تفتح على مسجد الرسول ، واستثنى باب بيت علي (ع) ، مكرراً هذه العبارة نفسها .

٤ ـ في غزوة تبوك ، كما سبق .

وفي ثلاث مناسبات أخرى تذكرها كتب أهل السنة أيضاً . وبناء على ذلك ، لا يبقى مجال للشك في صحة ورود حديث المنزلة لا في أسانيده ، ولا في مفهومه العام .

محتوى حديث المنزلة :

إذا نظرنا إلى الحديث المذكور نظرة عابرة ، وأغفلنا أحكامنا السابقة ، أمكننا أن نستنتج أن جميع المناصب التي كانت لهارون في بني إسرائيل من جانب موسى ، باستثناء النبوة ، كان لعلي (ع) مثلها ، وذلك لأنه ليس في الحديث أي قيد ولا أي شرط .

وعليه يمكن أن نصل إلى النتائج التالية :

١ ـ كان علي (ع) الأفضل في الأُمّة بعد رسول الله (ص) ، بمثلما كان هارون في بني إسرائيل .

٢ ــ كان علي (ع) وزير رسول الله (ص) ومعاونه الخاص ، وشريكه في قيادته الأمَّة ، إذ ان القرآن أثبت هذه المناصب لهارون (سورة طٰه ، الآيات ٢٩ ـ ٣٢) .

٣ ــ كان علي (ع) خليفة رسول الله (ص) حتى في حياته ، ولم يكن أي شخص آخر قادراً على الاضطلاع بتلك المهمة ، وهكذا كان مقام هارون بالنسبة لموسى .

حديث يوم الدار :

جاء في كتب التاريخ الإسلامي ان رسول الله (ص) قد أمر بإعلان دعوته السرية في السنة الثالثة من البعثة ، كما جاء في الآية ٢١٤ من سورة الشعراء :

﴿ وَأَنْذِر عَشِيرتك الأَقربين ﴾ .

فدعا الرسول (ص) أقرباءه إلى بيت عمه أبي طالب . وبعد تناول الطعام ، قال :

« يا بني عبدالمطلب إني أنا النذير إليكم من الله عز وجل والبشير فاسلموا وأطيعوني تهتدوا » . ثم قال : « من يؤاخيني ويؤازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟» فسكت القوم ، فأعادها ثلاثاً . كل ذلك يسكت القوم ، ويقول علي : أنا . فقال في المرة الثالثة : « أنت » . فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد أمر عليك . وروي عن أبي رافع : انه جمعهم في الشعب فصنع لهم رجل شاة فأكلوا حتى تضلعوا (أي شبعوا) وسقاهم عسلاً فشربوا كلهم حتى

رووا . ثم قال : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين وأنتم عشيرتي ورهطي وان الله لم يبعث نبياً إلاَّ جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة في أهله ، فأيكم يقوم فيبايعني على انه أخي ووارثي ووزيري ووصيي ويكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاَّ انه لا نبي بعدي؟ فسكت القوم . فقال : ليقومن قائمكم أو ليكونن من غيركم ثم لتندمن . ثم أعاد الكلام ثلاث مرات . فقام علي (ع) فبايعه فأجابه ، ثم قال : ادن مني . فدنا منه ففتح فاه ومج في فيه من ريقه وتفل بين كتفيه وثدييه ، فقال أبو لهب : بئس ما جبوت به ابن عمك ان اجابك فملأت فاه ووجهه بزاقاً . فقال النبي (ص) ملأته حكماً وعلماً » .

هذا الحديث يعرف باسم «حديث الدار»، وهو واضح في دلالته بما يكفي . أما من حيث أسانيد الحديث ، فقد ذكره كثيرون من علماء أهل السنة ، مثل «ابن أبي جرير» و«ابن أبي حاتم» و«ابن مردويه» و«أبي نعيم» و«البيهقي» و«الثعلبي» و«الطبري» و«ابن الأثير» و«أبي الفداء» وغيرهم[1] .

ولو اننا نظرنا إلى هذا الحديث نظرة عابرة أيضاً لتبينت لنا حقائق ولاية علي (ع) وخلافته ، لأنه صريح في هذا الموضوع .

* * *

(١) لمزيد من الاطلاع راجع «المراجعات» ص ١٣٠ وما بعدها ، و « إحقاق الحق » ج ٤ ، ص ٦٢ وما بعدها .

فكّر وأجب

١ ــ ما «حديث المنزلة»، وكم مرة قيل؟
٢ ــ ما المقامات التي يثبتها حديث المنزلة للإمام علي (ع)؟
٣ ــ ما المنزلة التي كانت لهارون بالنسبة لموسى، بموجب القرآن؟.
٤ ــ مَنْ مِنَ العلماء نقلوا حديث المنزلة؟.
٥ ــ أعد ذكر حديث يوم الدار ومحتواه وسنده والنتائج المستنتجة منه.

الدرس الثامن

حديث الثقلين وسفينة نوح

اسناد حديث الثقلين :

من الأحـاديث المشهورة والمعـروفة بين علمـاء السنة والشيعـة هو «حديث الثقلين» .

هـذا الحـديث ينقله عـدد كبيـر من الصحـابـة عن رسـول الله (ص) مباشرة ، ويقول بعض كبار العلمـاء ان رواة هذا الحـديث لا يقلون عن ثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله[1] .

كمـا أورده عـدد كبيـر من المفسـرين والمحـدثين في كتبهم ، بخيث لا يمكن الشك في كونه من الأحاديث المتواترة .

يشيـر العالم الكبيـر السيد هـاشم البحراني في كتـابـه «غـايـة المرام» إلى هذا الحـديث ويسنده إلى ٣٩ سنـداً من علمـاء أهـل

(١) « السيرة الحلبية » ج ٣٣ ص ٣٠٨ .

السنة ، و٨٠ سنداً من علماء الشيعة . أما (ميرحامد حسين) العالم الهندي الكبير ، فقد تعمّق في تتبع هذا الحديث ، فوجده مذكوراً عند مئتي عالم من علماء أهل السنة ، وقد جمع بحوثه حول هذا الحديث في ستة مجلدات ضخام!

ومن بين الصحابة المشهورين الذين ذكروا هذا الحديث : «أبو سعيد الخدري» و«أبو ذر الغفاري» و«زيد بن أرقم» و«زيد بن ثابت» و«أبو رافع» و«جبير بن مطعم» و«حذيفة» و«ضمرة الأسلمي» و«جابر بن عبدالله الأنصاري» و«أم سلمة» وغيرهم .

أصل الحديث ، كما يرويه أبو ذر الغفاري ، كما يلي :

« لما صدر النبي (ص) من حجة الوداع قال على المنبر : يا أيُّها الناس إني مسؤول وإنكم مسؤولون . . . إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1] .

هذا الحديث روته مصادر أهل السنة المعتبرة ، مثل «صحيح الترمذي» و«النسائي» و«مسند أحمد» و«كنز العمال» و«مستدرك الحاكم» وغيرهم .

جاء في بعض الروايات تعبير «الثقلين» وجاء في روايات أخرى تعبير «الخليفتين» ، وليس بين هذين من حيث المفهوم فرق كبيرة .

واللافت للنظر في هذا ان الكثير من الأحاديث الإسلامية

(١) نقلاً عن «ينابيع المودة» ص ٣٧، المنقول من جامع الترمذي .

المختلفة تقول ان رسول الله (ص) قد كرر هذا الكلام على الناس مرات عديدة :

ففي رواية «جابر بن عبدالله الأنصاري» تقرأ ان رسول الله (ص) قاله في يوم عرفة من أيام الحج .

والراوي «عبدالله بن حنطب» يقول انه قاله في «الجحفة» وهو مكان بين مكة والمدينة حيث يحرم الحجاج منه .

وتقول (أم سلمة) إنه قاله في غدير خم .

وجاء في روايات أخرى إنه قاله في أواخر أيامه المباركة وهو على فراش المرض .

وفي رواية أخرى إنه قاله من على المنبر في المدينة[1] .

ونقرأ في «الصواعق المحرقة» للعالم السني الكبير» ابن حجر » : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم أخذ بيد علي ورفعها وقال :

« علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض »[2] .

وهكذا يتبيّن ان رسول الله (ص) قد أكّد هذا المفهوم مرات عديدة باعتباره مبدأ أساساً ، إذ كان ينتهز كل فرصة مؤاتية لبيان هذه الحقيقة المصيرية البناءة لكيلا يطويها النسيان .

(١) «المراجعات» ص ٤٢ .

(١٢) « الصواعق المحرقة » ص ٧٥.

محتوى حديث الثقلين :

هنا لا بد من ملاحظة عدة نقاط :

١ ــ الإشارة إلى القرآن والعترة كثقلين أو كخليفتين ، تدل على أن على المسلمين أن يظلوا متمسكين بهما دائماً ، وخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار ما جاء في الحديث الشريف :

نص الحديث : **ما ان تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً** . فإن الأمر يزداد توكيداً وثبوتاً .

٢ ــ قرن «القرآن» بـ «العترة» متجاورين دليل على أنه مثلما ان القرآن لن تناله يد التحريف أبداً ويبقى مصوناً من كل تحريف ، كذلك تكون عترة رسول الله (ص) في مقام العصمة .

٣ ــ جاء في بعض الروايات ان الله يوم القيامة يحاسب الناس على كيفية ارتباطهم بهذين التذكارين العظيمين .

٤ ــ لا شك اننا مهما يكن تفسيرنا للعترة وأهل البيت ، فإن علياً (ع) يكون من أبرز مصاديقها ، إذ ان كثيراً من الروايات تقول إنه لم يفترق عن القرآن ، ولا القرآن افترق عنه .

وهنالك روايات أُخرىٰ تقول إنه عند نزول آية المباهلة ، دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، قائلاً : هؤلاء أهل بيتي[١] .

٥ ــ على الرغم من أن المسائل الخاصة بيوم القيامة ليست

(١) «مشكاة المصابيح» ص ٥٦٨ ط دلهي ، «الرياض النضرة» ج ٢ ص ٢٤٨ (نقلاً عن مسلم والترمذي» .

واضحة لنا نحن الذين نعيش محصورين بين جدران هذا العالم ، إلّا أن ما يستفاد من الروايات ينبىء بأن « حوض الكوثر » نهر خاص في الجنة ذو مميزات كثيرة ويختص بالمؤمنين الصادقين وبالرسول الكريم وأئمة أهل البيت وأتباعهم .

يتضح من كل ما قلناه ان مرجع الأُمَّة وقائدها بعد رسول الله (ص) هو علي (ع) ، والأئمة من بعده من أهل هذا البيت .

حديث سفينة نوح :

من التعبيرات اللافتة للانتباه والواردة في كتب أهل السنة والشيعة عن رسول الله (ص) هو حديث «سفينة نوح» المعروف .

في هذا الحديث يقول أبو ذر : قال رسول الله (ص) :

« ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مَثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق »[٢] .

هذا الحديث من الأحاديث المشهورة التي توجب على الناس اتباع علي (ع) وأهل بيت رسول الله (ص) بعده .

فإذا عرفنا أن سفينة نوح كانت ملجأ ووسيلة النجاة من ذلك الطوفان العظيم الذي شمل العالم ، اتضحت لنا هذه الحقيقة ، وهي انه اذا هبت الأعاصير والطوفانات بعد رسول الله (ص) فما على الأُمَّة إلّا أن تتمسك بأذيال الولاء لأهل البيت ، إذ لا سبيل لها إلى النجاة بغيرهم .

* * *

(١) « مستدرك الحاكم » ج ٣ ص ١٥١ .

فكّر وأجب

١ ـ ما محتوى حديث الثقلين؟ وما الامتيـازات التي يمنحها لأهـل البيت عليهم السلام؟

٢ ـ من هم الذين نقلوا حديث الثقلين؟

٣ ـ ما معنى «الثقلين»؟ وهل جاء في الأحاديث تعبير غيره؟

٤ ـ ما المناسبات التي ذكر فيها رسول الله (ص) هذا الحديث؟

٥ ـ اذكر أسانيد حديث سفينة نوح ومحتواه؟ .

* * *

الدرس التاسع

الأئمة الاثنا عشر

روايات الأئمة الاثني عشر :

بعد إثبات الإمامة والخلافة المباشرة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، يأتي دور الكلام على إمامة سائر الأئمة .

إن البحث المكثف حول هذا الموضوع يكون كما يلي :

أولاً : في متناول أيدينا اليوم كتب عديدة لأهل السنة والشيعة تنقل الروايات التي تتحدث صراحة عن خلافة «الاثني عشر إماماً وخليفة بعد رسول الله (ص) » .

هذه الأحاديث مروية في أهم كتب أهل السنة ، مثل «صحيح البخاري» و«صحيح الترمذي» و«صحيح مسلم» و«صحيح أبي داود» و«مسند أحمد» وأمثالها .

في كتاب «منتخب الأثر» مئتان وواحد وسبعون حديثاً بهذا

الشأن ، معظمها منقول من كتب أهل السنة وسائر المصادر الشيعية .

وكمثال على ذلك نقرأ في «صحيح البخاري» وهو من أشهر كتب أهل السنة، ما يلي :

يقول جابر بن سمرة : سمعت رسول الله (ص) يقول «يكون اثنا عشر أميراً» ثم قال كلمة لم أسمعها . فقال أبي انه قال : « كلهم من قريش »[١] .

وقد ورد هذا الحديث في «صحيح مسلم» هكذا : قال جابر سمعت رسول الله (ص) يقول :

« **لَا يَزَالُ الاسْلامُ عَزِيزاً إلى اثنَيْ عَشَر خَلِيفَة** » .

ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي : ما قال؟ فقال : كلهم من قريش»[٢] .

وفي « مسند أحمد » عن عبدالله بن مسعود ، الصحابي المعروف ، انه قال : سئل رسول الله (ص) بشأن الخلفاء ، فقال :

« **اثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل** »[٣] .

محتوى هذه الأحاديث :

هذه الأحاديث ـ التي يرى بعضها أن (عزة الإسلام) منوطة

(١) « صحيح البخاري » ج ٩ كتاب الامام ص ١٠٠ .
(١) « صحيح مسلم » كتاب الإمارة ، باب الناس تبع قريش .
(١) « مسند أحمد » ج ١ ص ٣٩٨ .

(بالاثني عشر خليفة) ويرى بعضها الآخر أن حياة الدين وبقاءه إلى يوم القيامة موكولان بهم ، وانهم كلهم من قريش ، وفي بعضها كلهم من بني هاشم ـ لا تنطبق على أي مذهب سوى المذهب الشيعي ، وذلك لأن توجيهها بسيط وواضح بحسب معتقدات أهل التشيع ، في الوقت الذي يصل فيه علماء أهل السنة في توجيها إلى طريق مسدود .

هل المقصود هم الخلفاء الأربعة الأول إضافة إلى خلفاء بني أمية وبني العباس؟

نحن نعلم ، بالطبع ، انه لا الخلفاء الأُوَل كانوا اثني عشر ، ولا بانضمام خلفاء بني أمية وبني العباس إليهم بلغوا هذا العدد . إن العدد اثني عشر لا ينطبق على أي منهم .

ثم إن من بني أمية خلفاء مثل «يزيد» ومن بني العباس مثل «المنصور الدوانيقي» و«هارون الرشيد»، ممن لا يشك أحد فيما ارتكبوه من جرائم وظلم وطغيان ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارهم خلفاء للنبي (ص) ومدعاة لعزة الإسلام ورفعته مهما تساهلنا في تبسيط الموازين .

وإذا تجاوزنا عن كل ذلك ، فإننا لن نجد العدد اثني عشر يتمثل في أي مجموعة منهم سوى في أئمة الشيعة الاثني عشر .

يحسن بنا هنا أن نترك الكلام لأحد علماء السنة المعروفين ليشرح لنا الموضوع .

يقول سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي في كتابه «ينابيع المودة» :

«قال بعض المحققين إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه وآله وسلَّم اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان علم أن مراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلتهم عن اثني عشر ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر ولظلمهم الفاحش إلَّا عمر بن عبدالعزيز ولكونهم من غير نبي هاشم لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم قال كلهم من بني هاشم في رواية عبدالملك عن جابر واخفاء صوته صلى الله عليه وآله وسلَّم في هذا القول يرجح هذه الرواية لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم ولا يمكن أن يحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم الآية قل لا أسألكم عليه أجراً إلَّا لمودة في القربى وحديث الكسا فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته صلى الله عليه وآله وسلَّم لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله وكان علومهم عن آبائهم متصلاً بجدهم صلى الله عليه وآله وسلَّم وبالوراثة واللدنية كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق ويؤيد هذا المعنى أي ان مراد النبي صلى الله عليه وآله وسلَّم الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته ويشهده ويرجحه حديث الثقلين والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها»(١) .

(١) « ينابيع المودة » ص ٤٤٦ .

من الجدير بالذكر انني في زياراتي للحجاز وفي أحاديثي مع علمائها ، سمعت منهم تفسيراً آخر لهذا الحديث يبين كيفية وصولهم إلى طريق مسدود في هذه المسألة . قال الرجل :

« ربما يكون المقصود بالاثني عشر خليفة ، الخلفاء الأربعة الأول في صدر الإسلام ، والباقي سوف يظهرون في المستقبل » !

وعلى هذا فإنهم يغفلون التوالي بين هؤلاء الخلفاء الاثني عشر ، والمفهوم من حديث رسول الله (ص) .

إننا نقول : ما الذي يدعو إلى أن نهمل التفسير الواضح البيّن للحديث ، كالتفسير المنسجم في توالي أئمة الشيعة الاثني عشر ، ونلقي بأنفسنا في متاهات لا مخرج لها؟

تعيين الأئمة بالاسم :

مما يلفت النظر ان بعض الروايات المروية عن رسول الله (ص) والتي وصلتنا من علماء أهل السنة ، تذكر الأئمة الاثني عشر بالاسم الصريح وتبين صفاتهم وفضائلهم .

قول الشيخ سليمان القندوزي ، العالم السني المعروف ، في كتابه المذكور « ينابيع المودة » :

جاء رجل يهودي يدعى نعثلاً إلى رسول الله (ص) ، وكان من بين الأسئلة التي ألقاها عليه انه سأله عن أوصيائه وخلفائه من بعده ، فقال رسول الله (ص) :

« إن وصيي علي بن أبي طالب ، وبعده سبطاي الحسن والحسين يتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين . إذا مضى الحسين فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه جعفر ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى ، فإذا مضى موسى فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه الحسن ، فإذا مضى الحسن فابنه الحجة محمد المهدي ، فهؤلاء اثنا عشر »[١] .

وفي الكتاب نفسه ، نقلاً عن كتاب «المناقب» ، حديث آخر جاء فيه ذكر الأئمة الاثني عشر بالاسم واللقب ، ويشير إلى غيبة الإمام المهدي (ع) وإلى نهضته وانه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد ما ملئت جوراً وظلماً[٢] .

أما الأحاديث الواردة بهذا الخصوص عن طريق الشيعة فكثيرة تفوق حد التواتر ، فتأمل!

من مات ولم يعرف إمامه... :

نقرأ في كتب أهل السنة حديثاً عن رسول الله (ص) انه قال :

« من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية » ![١] .

هذا الحديث نفسه ورد في كتب الشيعة بهذه الصورة :

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٤١ .
(١) المصدر نفسه ، ص ٤٤٢ .
(١) المعجم المفهرس لألفاظ الأحاديث النبوية ، ج ٦ ص ٣٠٢ .

« من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية »[2] .

يدل هذا الحديث دلالة بيّنة على أن الإمام المعصوم موجود في كل عصر وزمان وان من الواجب معرفته ، وان عدم معرفته على درجة من الضرر بحيث انه يضع الإنسان عند تخوم الكفر والجاهلية .

فهل المعنيون بالأئمة في هذا الحديث هم القائمون على رأس الحكم ، من أمثال جنكيز خان وهارون الرشيد والحكام العملاء؟ .

لا شك أن الجواب يكون بالنفي ، وذلك لأن الغالبية العظمى من هؤلاء أناس منحرفون وظالمون وأحياناً يكونون عملاء للغرب أو الشرق وينفذون سياساتهم الاستكبارية ، فلا شك في أن معرفتهم وقبول إمامتهم يرسلان الإنسان إلى «دار البوار» في جهنّم .

يتضح من ذلك أن هناك في كل عصر إماماً معصوماً ، وانه يجب البحث عنه ومعرفته وقبوله كقائد وهاد .

إن إثبات إمامة كل إمام يتم ـ بالإضافة إلى الطريق المذكور ـ بطريق النصوص والروايات الواردة عن كل إمام سابق بالنسبة للإمام اللاحق ، وكذلك عن طريق معجزاتهم .

* * *

(١) « بحار الأنوار » ج ٦ ص ١٦ الطبعة القديمة .

فكّر وأجب

١ ـ ما هي الكتب التي وردت فيها الروايات الخاصة بالأئمة الاثني عشر؟

٢ ـ ما محتوى هذه الروايات؟

٣ ـ كيف تفسًّر هذه الأحاديث تفسيرات غير مناسبة؟

٤ ـ هل جاء في أحاديث أهل السنة أسماء الأئمة الاثني عشر كلهم؟.

٥ ـ ما الطرق الأُخرىٰ لإثبات الأئمة الاثني عشر؟

الدرس العاشر

الإمام المهدي (عج)
الإمام الثاني عشر والمصلح العالمي العظيم

١ ـ نهاية الليلة الظلماء :

عندما نلقي نظرة على أوضاعنا الحاضرة ونلاحظ تصاعد نسبة الجرائم وحوادث القتل والحروب وإراقة الدماء والمصادمات والمنازعات الدولية واستمرار اتساع نطاق المفاسد الأخلاقية ، يبرز في ذهننا هذا السؤال : هل سيستمر الوضع على هذه الحال؟ وهل يزداد انتشار هذه الجرائم والمفاسد حتى تجر البشرية إلى حرب دائمية تهلك الحرث والنسل؟ أم ان الانحرافات العقائدية والمفاسد الأخلاقية ، كمستنقع عفن ، سيبتلع الإنسانية ابتلاعاً؟

أم ان هناك بصيص ضوء من أمل في النجاة والاصلاح؟

الجواب الأول هو الذي يقول به المتشائمون والماديون ، وهو أن مستقبل العالم مظلم ، ولا يخلو كل زمان من احتمال الخطر .

أما الذين يؤمنون بمبادىء الأديان السماوية ، وخاصة المسلمون ، والشيعة منهم على الأخص ، فيجيبون بجواب آخر عن هذا السؤال ، فيقولون :

إن وراء هذه الليلة الحالكة السواد صبح أمل مشرق ، وإن هذه السحب الدّكن ، وهذه الأعاصير المهلكة والسيول المدمرة سوف تزول في النهاية ، وتسطع الشمس في سماء صافية وجو صحو .

إن هذه الدوامات المخوفة لا تبقى في طريقنا دائماً ، وإن في الأفق القريب دلائل على وجود ساحل النجاة يطالع الناظرين .

إن العالم ينتظر مصلحاً عظيماً يغير بثورته وجه العالم لصالح الحق والعدالة .

وبالطبع يطلق اتباع كل دين اسماً خاصاً على هذا المصلح المنتظر، مصداقاً لقول الشاعر:

عباراتنا شتى وحسنك واحد　　　وكل إلى ذاك الجمال يشير

٢ ـ الفطرة وظهور المصلح العظيم :

إن الإلهامات الباطنية ، التي تكون أمواجها أقوى أحياناً من أحكام العقل ، لا تقتصر على تعريفنا على الله فقط ، بل هي قادرة على أن تكون دليلنا في جميع معتقداتنا الدينية ، بما فيها هذه المسألة أيضاً .

ودلائل ذلك هي :

أولاً : الرغبة العامة في العدالة العالمية . فالناس في العالم كله ، على ما بينهم من اختلافات ، يحبون ، بلا استثناء ، السلام والعدالة . إننا جميعاً ننادي بهذا ونجاهد في سبيله ونطلب العدالة والسلام العالميين بكل وجودنا .

ليس هناك دليل أفضل من أن انتظار ظهور هذا المصلح العظيم إنما هو أمر فطري ، وذلك لأن أي مطلب يريده الناس كافة دليل على فطريته ، فتأمل؟!

كل حب أصيل وفطري يحكي عن وجود محبوب خارجي وجذاب كيف يمكن أن يخلق الله هذا التعطش في داخل الإنسان دون أن يخلق في خارجه الينبوع الذي يصبو نحوه ليرتوي منه؟

لهذا نقول ان فطرة الإنسان وطبيعته التي تبحث عن العدالة تصرخ بأعلى صوتها أن الإسلام والعدالة سوف يسودان العالم كله في نهاية المطاف ، وان مظاهر الظلم والجور والأنانية سوف تزول ، وان البشرية ستتوحد في دولة واحدة وتعيش تحت راية واحدة في جو من التفاهم والطهارة .

ثانياً : إن الأديان والمذاهب عموماً تنتظر مصلحاً عالمياً كبيراً . إنك تكاد تجد في جميع الأديان فصلاً يحدثك عن هذا الأمر إن الاعتقاد بظهور منج عظيم ، يكون بلسماً لجراح البشرية المؤلمة ، لا يقتصر على المسلمين ، بل ان هناك مستندات وأدلة تؤكد كونه اعتقاداً عاماً وقديماً آمنت به الأقوام والأديان في الشرق وفي الغرب ، إلّا أن الإسلام ، لكونه الدين الكامل ، يؤكد هذا الأمر توكيداً أكبر . .

ففي كتاب « زند » من كتب الزراد شتيين المعروفة ، يرده ذكر الصراع الدائم بين اتباع الله واتباع الشيطان ، ثم يقول :

« بعد ذلك ينتصر الإلهيون على الشياطنيين الذين ينقرضون . . . وان عالم الوجود ينال سعادته الأصيلة ويجلس ابن آدم على كرسي حسن الحظ . . . »

وفي كتاب « جاماسب نامه » لزرادشت تقرأ ما يلي :

« يخرج رجل من أرض التازيين (العرب) ، عظيم الرأس ، عظيم الجسد ، عظيم الساق ، على دين جده ، في جيش كثير . . . . . ويملأ الأرض عدلاً » .

وجاء في كتاب « وشن جوك » من كتب الهنود الصينيين :

وأخيراً ترجع الدنيا إلى رجل يحب الله وهو من عباده المخلصين .

ونقرأ في كتاب للهنود اسمه «باسك» :

« دور العالم ينتهي إلى ملك عادل في آخر الزمان ، يكون رائداً للملائكة والجن وبني آدم ، ويكون الحق معه ، ويكون بيده كل كنوز البحار والأرضين والجبال ، يخبر عما في السماء والأرض ، ولا ترى الأرض رجلاً أعظم منه » .

وفي « مزامير » داود من كتاب « العهد القديم » (التوراة وما ألحق به) نقرأ :

« يقطع دابر الأشرار ، أما المتوكلون على الله فسوف يرثون الأرض » .

« والصديقون يرثون الأرض ويسكنونها دائماً » .

وهناك كلام يشبه هذا في كتاب « اشعيا النبي » من كتب التوراة .

وفي الفصل ٢٤ من انجيل متى نقرأ :

« كالبرق يخرج من المشرق ويكون ظاهراً حتى المغرب . ابن الإِنسان سيكون كذلك أيضاً » .

وفي الفصل ١٢ من انجيل لوقا نقرأ :

« شدوا أحزمتكم ، وأشعلوا مصابيحكم ، وكونوا كمن ينتظر سيده ، حتى إذا ما جاء في أي وقت وطرق الباب تسرعون لفتحه » !

جاء في كتاب « علائم الظهور » :

« في كتب الصينيين القدامى ، وفي معتقدات الهنود ، وعند الأهالي الاسكندنافيين ، وحتى عند المصريين القدامى وأهالي المكسيك وأمثالهم ، يسود الاعتقاد بظهور مصلح عالمي » .

٣ ـ الأدلة العقلية :

أ ـ نستخلص من نظام الخلق أن البشر يجب في النهاية أن يخضعوا لقانون العدالة ويستسلموا للنظم العادلة المصلحة الثابتة .

وذلك لأن عالم الوجود ، بالقدر الذي نلاحظه ، عبارة عن مجموعة من النظم . إن وجود هذه القوانين المنظمة التي تحكم العالم بأسره لدليل على وحدة هذا النظام وترابطه .

وتعتبر قضية النظام والقانون والمنهج والتخطيط من أهم مسائل هذا العالم الرئيسة والجادة . فابتداء من المنظومات الشمسية العظيمة حتى الذرة التي يمكن أن توضع ملايين منها على رأس ابرة ، كلها تخضع لنظام دقيق .

مختلف أجهزة جسم الإنسان ، ابتداء من بناء الخلية العجيب حتى طريقة عمل الدماغ ، وشبكة الأعصاب ، والقلب والرئتين ، كلها تتبع نظاماً دقيقاً وتعمل أشبه بأجهزة الساعة الدقيقة ، كما يعبّر عن ذلك أحد العلماء ، بحيث ان أدق الحاسبات الالكترونية لا تكون شيئاً مذكوراً بجانبها .

فهل في هذا العالم الدقيق يمكن للإنسان ـ الذي هو جزء من كل ـ ان يظهر بمظهر الرقعة المخالفة في اللون وفي التنظيم ليعيش فيه في حياة كلها حرب وإراقة دماء وظلم؟

هل يمكن لحالة الظلم والفساد الأخلاقي والاجتماعي ، التي تعتبر ضرباً من الفوضى وانعدام النظام ، أن تسود المجتمع البشري حتى الأبد؟ .

النتيجة هي ان مشاهدة نظام الوجود تلفت نظرنا إلى أن المجتمع البشري لا بد له في النهاية ان يطأطىء رأسه امام النظام والعدالة ، وان يعود مرة أخرىٰ إلى المسير الأصلي الذي خلق للسير فيه .

ب ـ مسيرة المجتمعات التكاملية . وهذه دليل آخر على مستقبل البشرية الواضح ، إذ إننا لا يمكن أن ننكر أن المجتمع البشري ، منذ أن عرف نفسه ، لم يتوقف في مرحلة معينة ، بل كان دائم السير والتحرك إلى الامام .

فمن حيث الجوانب المادية ، المسكن واللباس والغذاء ، وطرق النقل والمواصلات ، والأفكار التوحيدية ، كان الإنسان في وقت ما يعيش في أبسط ظروفها . ولكنه الآن بلغ مرحلة تحير العقول وتعشي العيون ، ولا شك ان هذا سوف يواصل حركته الصعودية .

أما من حيث العلوم والثقافات فقد كان الإنسان يسير سيراً تصاعدياً أيضاً فهو في كل يوم يكتشف شيئاً جديداً ويفتح فتحاً جديداً .

إن هذا « القانون التكاملي » سيشمل في النهاية الجوانب المعنوية والأخلاقية والاجتماعية أيضاً ، ويتقدم بالإنسان نحو قانون عادل وسلام عادل ثابت ، وفضائل أخلاقية ومعنوية . إن ما نراه اليوم من تفشي المفاسد الأخلاقية وتفاقمها ، إنما هو وسيلة تمهد الطريق لانضاج ثورة تكاملية شاملة .

إننا بالطبع لا نقول ان علينا أن نشجع الفساد ، ولكننا نقول إن الفساد إذا جاوز الحد أدى إلى ثورة أخلاقية . فعندما يصل الإنسان إلى طرق مسدودة ويجد عواقب غير محمودة ناشئة من آثامه ، وعندما يرتطم رأسه بالصخور ، وتبلغ روحه التراقي ، عندئذٍ يكون في الأقل على أهبة الاستعداد لتقبل المبادىء التي يعرضها عليه القائد الإلّهي .

القرآن وظهور المهدي :

في كتابنا السماوي العظيم آيات كثيرة تبشر بهذا الظهور العظيم ، نكتفي بواحدة منها فقط .

في الآية ٥٥ من سورة «النور» نقرأ :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾

تبين هذه الآية بجلاء ان الحكم على الأرض سيخرج في النهاية من أيدي الجبارين والظالمين ، وسيكون الحكم بيد المؤمنين الصالحين .

وفي اثر الآية المذكورة والوعد الذي فيها ، يعد الله ثلاثة وعود أُخرىٰ :

« وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ .

في تفسير هذه الآية قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام :

« هم والله شيعتنا يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منّا وهو مهدي هذه الأمة »[1] .

المهدي في كتب الحديث :

إن الأحاديث التي تشير إلى الحكومة العالمية القائمة على السلام والعدل ، والتي يؤسسها أحد أهل بيت رسول الله (ص) اسمه «المهدي» أحاديث كثيرة وردت في كتب الشيعة والسنة ، وهي من الكثرة بحيث تعدت حدود التواتر أيضاً .

(١) تفسير « مجمع البيان » الآية ٥٥ من سورة (النور).

أما الكلام على انه هو الإمام الثاني عشر ، وخليفة رسول الله (ص) والتاسع من أولاد الإمام الحسين (ع) ، وانه ابن الامام الحسن العسكري (ع) فهو كثير في المصادر الشيعية .

فمن حيث القسم الأول ، أي التواتر الوارد في كتب أهل السنة في أحاديث ظهور المهدي ، يكفي أن نقول ان علماء أهل السنة يشيرون إلى ذلك صراحة إلى الحد الذي نقرأ في الرسالة التي اصدرتها مؤخراً « رابطة العالم الإسلامي » - وهو أكبر مركز ديني في الحجاز - ما يلي :

« انه آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي (ص) في أحاديث صحاح ، والأحاديث عن المهدي نقلت عن كثير من الصحابة عن رسول الله (ص) » .

وبعد ذكر أسماء عشرين من الصحابة الذين نقلوا أحاديث النبي (ص) عن المهدي ، تستطرد الرسالة قائلة :

« وهناك آخرون كثيرون نقلوا هذه الأحاديث وبعض علماء أهل السنة ألفوا الكتب الخاصة في الأخبار الواردة عن المهدي ، منهم أبو نعيم الأصفهاني ، وابن حجر الهيثمي ، والشوكاني ، وادريس المغربي ، وأبو العباس بن عبدالمؤمن » .

ثم يضيف بعد ذلك : « جمع من علماء أهل السنة القدامى والمحدثين يصرحون بأن الأخبار عن المهدي متواترة » .

بعد ذكر اسماء عدد من هؤلاء تختتم الرسالة كلامها بالقول :

« أعلن فريق من الحفاظ والمحدثين ان أخبار المهدي فيها الصحيح وفيها الحسن ، وهي في المجموع من المتواتر قطعاً ،

وإن الاعتقاد بقيام المهدي صحيح وواجب ، وهذا من عقائد أهل السنة والجماعة المسلم بها ، ولا ينكره إلاَّ كل جاهل وصاحب بدعة » .

أما أحاديث الشيعة :

يكفي هنا أن نعلم أن هناك المئات من الأحاديث بهذا الشأن عن رواة مختلفين ، عن رسول الله (ص) وعن الأئمة (ع) بما يتجاوز حد التواتر ، وهو عند الشيعة من ضروريات الدين ، بحيث انه لا يمكن لأحد أن يعتنق المذهب الشيعي دون أن يطلع على عقيدتهم بظهور المهدي وخصائص ذلك وعلائم الظهور وكيفية حكومته ومناهجها المختلفة .

لقد أكب كبار علماء الشيعة منذ القرون الأولى حتى اليوم على كتابة الكتب العديدة بهذا الخصوص جمعوا فيها الأحاديث المتعلقة بالمهدي (عج) .

إننا هنا نكتفي بذكر بعض الأحاديث من باب المثال ، تاركين لمن يريد الاستزادة أن يرجع إلى كثير من الكتب المهمة التي ألفت في هذا الموضوع ، منها كتاب « المهدي » تأليف العالم الكبير السيد صدر الدين الصدر .

قال رسول الإسلام (ص) :

« لو لم يبق من الدهر إلاَّ يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يلمؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[1] .

(١) جاء هذا الحديث في أغلب كتب الشيعة وأهل السنة .

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال :

« إذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع الجور في أيـامه وأمنتـه به السبـل وأخـرجت الأرض بـركـاتهـا ورد كـل حق إلى أهله . . . وحكم بين النـاس بحكم داود وحكم محمـد (ص) فحينئـذٍ تـظهـر الأرض كنوزها وتبدي بركاتها ولا يجد الرجـل منكم يومئـذٍ موضعـاً لصدقته ولبره لشمول الغنى جميع المؤمنين »[١] .

مـلاحـظة : نعلم انـه في زمـان غيبـة إمـام العصـر (أرواحنـا فـداه) يستمر خط الإمـامة والـولاية متمثـلاً في نواب الإمـام . وقد جـاء بحث ذلـك في كتـاب « حكـومت إســلامي » تحت عنـوان «ولايت فقيه» .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ مـا الاختلاف في نـظرة الذين يعبـدون الله والماديين بـالنسبـة لمستقبل العالم؟ .
٢ ــ هل يمكن أن نعلم بظهور المهدي بالفطرة؟ كيف؟
٣ ــ هل هناك دليل عقلي على الظهور؟ ما هو؟
٤ ــ ماذا يقول القرآن بهذا الشأن؟
٥ ــ كيف هي دراسة السنة في هذا الموضوع؟ .

* * *

(١) « بحار الأنوار» ج ١٣ الطبعة القديمة .

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الإسلامية

القسم الخامس

معرفة المعاد

الدرس الأول

سؤال مهم: هل الموت نهاية أم بداية؟

معظم الناس يخافون الموت ، فلماذا؟

لقد كان الموت يتراءى دائماً للإنسان في صورة عظيمة مرعبة مخيفة تحيل طعم الحياة العذب إلى مثل العلقم في فمه كلما خطر له الموت .

إنه لا يخاف اسم الموت فحسب ، بل يرتعب حتى من ذكر اسم المقابر ، فيسعى إلى تزيينها واضفاء البهرجة عليها لعله ينسى ماهيتها الحقيقية .

بالرجوع إلى آداب مختلف شعوب العالم نجد آثار هذا الخوف من الموت بادية للعيان ، فيوصف بهول الهلاك ، أو بمخلب الموت ، أو بضربة الأجل ، وبأمثال ذلك .

وإذا أرادوا ذكر اسم ميت ، سعوا إلى تخفيف الموقف على السامع بتعبيرات مثل « أبعدنا الله عن ذلك » أو « أطال الله عمرك » وغير ذلك .

فلا بد أن نعرف إذن ما الذي يدعو الناس إلى أن يخافوا خوفاً دائماً من الموت .

ثم لماذا نجد ، بخلاف ذلك ، أُناساً فضلاً عن كونهم لا يخافون الموت ، فإنهم يستقبلونه بالابتسامة ويفخرون بمقدمه؟

يحدثنا التاريخ عن أُناس كانوا يبحثون عن ماء الحياة واكسير الشباب ، وعن أُناس آخرين كانوا يهرعون إلى جبهات الجهاد بشغف ، يواجهون الموت بترحاب باسم ، وقد يتشكون من طول اعمارهم ، لأنهم كانوا متلهفين للقاء الحبيب ورؤية الله . وهذا ما نراه اليوم أيضاً على جبهات الحق ضد الباطل ، وكيف أن هؤلاء يسرعون إلى الاستشهاد وقد وضعوا أرواحهم على أكفهم[1] .

لماذا الخوف؟

بالفحص والتمعن نستنتج أن سبب هذا الخوف من الموت عاملان :

١ ــ تفسير الموت بالفناء :

إن الإنسان بطبيعته يهرب من حالات العدم : فهو يهرب من المرض الذي يعني انعدام الصحة ، ويهرب من الظلام الذي

يعني انعدام النور ، ويهرب من الفقر الذي يعني انعدام الغنى ، بل انه يهرب أحياناً حتى من الدار الخالية ، ومن الانفراد في الصحراء ، لانعدام الرفيق فيهما .

والعجيب انه برهب الميت نفسه ، فهو يرفض مثلاً أن يبيت مع جسد ميت في غرفة واحدة ، مع انه لم يكن يخاف هذا الميت قبل أن يموت! فما السبب يا ترى في خوف الإنسان من العدم وهروبه منه؟

إن السبب واضح ، فالوجود معقود بالوجود ويألفه ، ولا يمكن أن يتآلف الوجود والعدم يوماً ، لذلك فمن الطبيعي أن نكون غرباء على العدم ونشعر بالخوف منه .

فإذا نحن قلنا بأن الموت هو نهاية كل شيء ، وان بالموت يبلغ كل شيء خاتمته ، عندئذٍ يحق لنا أن نخشاه وأن نهرب حتى من اسمه ومظهره ، لأن الموت يسلبنا كل شيء .

أما إذا اعتبرنا الموت بداية حياة جديدة ، حياة خالدة ، ونراه نافذة تفتح لنا على العالم العظيم ، عندئذٍ يكون من الطبيعي ألّا نخاف الموت ، بل إننا نهنىء الطاهرين الذين يخطون نحوه بثبات مرتفعي الرأس!

.الأضابير السود

إننا نعرف أُناساً لا يرون في الموت معنى الفناء والعدم ، لأنهم لا ينكرون الحياة بعد الموت ، ولكنهم مع ذلك يخافون الموت وذلك لأن صحائف أعمالهم قد اسودت إلى درجة أنهم إنما يخافون العقوبات الأليمة التي يتوقعونها بعد الموت .

إن لهؤلاء الحق في أن يخافوا الموت . إنهم أشبه

بالمجرمين الخطرين الذين يخافون الخروج من السجن ، لأنهم يعلمون أن خروجهم من السجن يعني تعليقهم على خشبة الاعدام ، فهم ، لذلك ، يتشبثون بقضبان السجن ، لا لكرههم الحرية ، إنما هم يكرهون الحرية التي تقودهم إلى المشنقة .

هكذا حال المسيئين ، فهم يرون انعتاق أرواحهم من هذا السجن الضيّق مقدمة لتحمل أنواع العذاب القاسي بسبب ما ارتكبوه من أعمال قبيحة ومن ظلم وجور وفساد ، ولذلك فهم يخافون الموت .

أما الذين لا يرون في الموت « فناء » ، ولا يجدون « أضابير » أعمالهم سوداً ، فما الذي يحملهم على الخوف من الموت؟

إنهم، بالطبع ، يريدون هذه الحياة بكل كيانهم ويرغبون فيها ، لكي يستثمروها في سبيل حياتهم الجديدة بعد الموت ، ويعدوا أنفسهم لاستقبال الموت الذي يكون في سبيل رضا الله ، ذلك الهدف الذي يدعو للافتخار والاعتزاز .

نظرتان مختلفتان :

قلنا إن الناس فريقان : فريق ، وهم الأكثرية ، يخافون الموت ويهربون منه .

وفريق آخر يستقبلون الموت ، الذي يكون في سبيل هدف عظيم ، كالشهادة في سبيل الله ، بأحضان مفتوحة ، أو انهم ، في الأقل ، إذا أحسّوا بدنو الموت لا يداخلهم هَمْ وَلَا غَمْ أبداً .

والسبب هو إن أولئك وهؤلاء مختلفون في النظرة .

الفريق الأول : هؤلاء إمّا أن يكونوا من الذين لا يؤمنون

بوجود عالم بعد الموت ، وإمّا أنهم لا يصدقون بوجوده كل التصديق ، ولذلك ينظرون إلى لحظة الموت وكأنها لحظة فراقهم لكل شيء . إن مفارقة كل شيء والخروج من النور إلى الظلام المطلق أمر صعب أليم ، كحال من يخرجونه من السجن ليقدموه للمحاكمة عن جريمة ثابتة عليه ، فهي حال رهيبة من الخوف .

أما الفريق الثاني : فيرى الموت ولادة جديدة وخروجاً من محيط الدنيا الضيق المظلم ، ودخولاً إلى عالم وسيع نيّر .

إن التحرر من قفص ضيق صغير ، والتحليق في السماء الفسيحة ، والخروج من ذلك المحيط المليء بالخصام والنزاع وضيق النظر والظلم والحقد والحروب ، والدخول إلى عالم قد تطهر من كل هذا التلوث ، لا شك يجعل الموت أمراً مرغوباً فيه عند هذا الفريق الثاني ، فلا يخافون منه . يقول الإمام علي عليه السلام :

« والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه » .

أو كما قال الشاعر الفارسي :

مركَ اكَر مرداست كونزدمن آي — تادر آغوش بكيرم تنك تنك ! !
من زاو جاني ستانم جاودان — أوزمن دلقي ستاندرنك رنك ! !

(إذا كان الموت رجلاً ، قل : تعال إليّ
حتى احتضنه احتضاناً شديدا)

(فإني سأتسلم منه روحاً خالدة
ويأخذ مني رداءً حال لونه)

إذن ليس من المستغرب أن نصادف في التاريخ رجالاً مثل

الحسين عليه السلام ومثل أصحابه المضحين ، كلما ازدادت لحظة الشهادة قرباً منهم ، ازدادت فرحتهم واشتد شوقهم إلى لقاء الحبيب وتلألأت وجوههم لقرب اللقيا .

وهذا هو نفسه الذي نقرأه في تاريخ حياة الإمام علي عليه السلام العظيمة ، فهو عندما تنزل على مفرقة ضربة سيف ذلك المجرم الاثيم ، يصيح قائلاً :

« فزت ورب الكعبة » .

بديهي أن لا يعني هذا الكلام حثّ الناس على إلقاء أنفسهم في المهالك ، والاغضاء عن هبة الحياة العظيمة التي وهبها الله لهم ، فلا يستثمرونها للوصول إلى أهدافهم الكبرى . بل المقصود هو حمل الإنسان على استغلال الحياة استغلالاً سليماً ، دون أن يعتورهم الخوف من انتهائها ، وخصوصاً إذا كانت الغاية هدفاً عظيماً وسامياً .

فكّر وأجب

١ ــ لماذا يخاف الناس من الموت؟ أذكر الأسباب .

٢ ــ لماذا يستقبل بعض الناس الموت مبتسمين ويعشقون الشهادة في سبيل الله؟

٣ ــ بم يمكن تشبيه لحظة الموت؟ ما شعور المؤمنين المطهرين في تلك اللحظة ، وما شعور المسيئين عديمي الإيمان؟

٤ ــ هل اتفق لك أن رأيت بنفسك أشخاصاً لا يرهبون الموت؟ ما هي انطباعاتك عنهم؟ .

٥ ــ ما الذي قاله علي عليه السلام بشأن الموت؟ .

الدرس الثاني

المعاد يعطي الحياة مفهومها

إذا تصوّرنا هذا العالم بدون العالم الآخر لظهر لنا أن عالمنا فارغ ولا معنى له . إنه أشبه ما يكون بافتراض دورة حياة الجنين بدون خروجه من تلك الحياة إلى هذه الحياة الدنيا .

إن الجنين الذي يعيش في رحم أُمه ، ويقضي في هذا السجن الضيق والمظلم شهوراً عدة ، ليأخذه العجب حقاً لو انه أوتي عقلاً وحكمة ليتفكر بهما في أمره وكونه في سجنه ذاك :

لماذا أنا حبيس في هذا السجن المظلم؟
لماذا عليَّ أن أخوض في هذه المياه والدماء؟
ما نتيجة ذلك؟
من الذي أرسلني؟ ولماذا؟

أما إذا قيل له : إنك تقضي هنا فترة مؤقتة ، تتشكل فيها أعضاءك، فتقوى، وتصبح قادراً على الحركة والسعي في عالم كبير آخر ، وان قرار خروجك من هذا السجن سوف يصدر بعد

انقضاء تسعة أشهر ، فتضع قدمك في دنيا فيها شمس ساطعة ، وقمر منير ، وأشجار خضر ، ومياه جارية ، وكثير من النعم الأخرىٰ ، عندئذٍ سيتنفس الجنين الصعداء ويقول : الآن أدركت فلسفة وجودي في هذا السجن!

فهذه الدنيا مقدمة ، انها منصة القفز ، انها المدرسة التي تعد المرء لدخول الجامعة الكبيرة .

أما إذا قطعت علاقة حياة الجنين بالحياة في هذه الدنيا ، لغرق كل شيء في الظلام ولم يعد له أي معنى ، ولكان السجن رهيباً ومستقبل السجين أليماً .

كذلك هي العلاقة بين الحياة في هذه الدنيا والحياة بعد الموت . ما الداعي الذي يدعونا أن نظل نتقلب في هذه الدنيا سبعين سنة ، أو أقل أو أكثر ، متحملين العذاب والعناء ، نقضي فترة من الزمن نعاني من قلة التجربة والمعرفة حتى ننضج ، ونقضي فترة أخرى ندرس ونتعلم ، وما أن تنتهي مرحلة النضج والتعلم حتى نجد ثلوج الكهولة قد حطت على رؤوسنا!

ثم ما الهدف من كل هذا؟ ألكي نأكل ونلبس وننام ، ثم لكي نكرر هذا عشرات السنين؟ أفهل هذه السماء الشاسعة . وهذه الأرض الواسعة ، وكل هذه المقدمات والدرس واختزان المعلومات والتجارب ، وكل هؤلاء الأساتذة والمربين ، لم يكونوا إلاّ للأكل والشرب واللبس في هذه الحياة المنحطة المتكررة؟

هنا تتأكد عبثية هذه الحياة وفراغها عند أولئك الذين لا يؤمنون بالمعاد ، لأنهم لا يمكن أن يتصوروا هذه الأمور التافهة هي الهدف والغاية من الحياة ، وهم في الوقت نفسه لا يعتقدون

بوجود حياة بعد الموت حتى تكون هي الغاية .

لذلك نجد أن كثيراً من هؤلاء يلجأون إلى الانتحار للخلاص من حياة كهذه عديمة المعنى والهدف .

أما إذا صدقنا أن الحياة « مزرعة » الآخرة ، وأن علينا أن نباشر بالبذر هنا حتى نحصد الغلة في حياة أبدية خالدة .

وإذا علمنا أن الدنيا « جامعة » علينا أن نكتسب منها المعرفة لنعد أنفسنا للعيش في دنيا خالدة ، وأن هذه الدنيا ليست سوى « جسر » للعبور .

عندئذٍ لا تكون هذه الدنيا فارغة ولا عبثاً لا معنى له ، بل سوف نراها فترة تمهيدية وإعدادية لحياة خالدة وأبدية تستحق منا أكثر من كل هذا ، الذي نبذله من أجلها .

نعم ، إن الإيمان بالمعاد يمنح الحياة معنى ومفهوماً ، ويخلصها من « الاضطراب » و « القلق » و « العبثية » .

الإيمان بالمعاد عامل تربوي :

إن للاعتقاد بوجود محكمة العدل العظمى في الآخرة تأثيراً كثيراً في الحياة ، بالإضافة إلى ما سبق قوله .

أفرض أنهم أعلنوا في البلاد أنه إذا ارتكب الناس أي جرم في اليوم الفلاني من السنة فلن يعاقبوا ولن يذكر ذلك في صحيفة أعمالهم ، وأن لهم أن يقضوا يومهم بكل اطمئنان ، لأن رجال الشرطة سوف يكونون في إجازة ، وسوف تتعطل المحاكم ، وعندما تعود الحياة العادية إلى مجراها الطبيعي في اليوم التالي فإن جرائم اليوم السابق سوف تنسى .

لكم أن تتصوروا كيف سيكون حال المجتمع في ذلك اليوم!

إن الإيمان بيوم القيامة هو الإيمان بدار عدالة عظمية لا يمكن مقارنتها بمحاكم هذه الدنيا .

أما خصائص محكمة العدل الإلٰهية فهي :

١ ــ انها محكمة لا تتأثر بالوساطات ، ولا بالمحسوبيات ولا ينخدع قضاتها بالأدلة المزيفة.

٢ ــ انها محكمة لا تحتاج إلى المراسيم والتشريفات السائدة في محاكم الدنيا ، ولذلك فليس فيها تأجيلات وتأخيرات ، بل تنظر في القضايا بسرعة البرق وتصدر احكامها بمنتهى الدقة .

٣ ــ انها محكمة لا تستند إلّا إلى أعمال الشخص نفسه ، أي إن الأعمال تحضر هناك وتثبت علاقتها بفاعلها بحيث لا يمكن انكارها .

٤ ــ انها محكمة الشهود فيها أعضاء المتهم : يده ورجله وأُذنه وعينه ولسانه وجلده ، وحتى أرض الدار وأبوابها وجدرانها حيث ارتكب معصية أو أدى فروض الطاعة ، وهم شهود لا يمكن انكارهم كآثار أعمال الإنسان الطبيعية .

٥ ــ انها محكمة قاضيها هو الله العليم بكل شيء، والغني عن كل شيء ، والعادل الذي لا يضاهي عدله عادل .

٦ ــ وأخيراً ، الجزاء في هذه المحكمة ليس محدداً من قبل ، بل أكثر ما تحدده أعمالنا نفسها ، إذ انها تتشكل وتستقر إلى جانبنا ، فتعذبنا أو ترفه عنا وتغرقنا في نعم الله .

إن الإيمـان بوجـود محكمة كهـذه يؤدي بالإنسـان إلى أن يردد ما قاله الإمام علي عليه السلام :

« والله لأن أبيت على حسـك السعـدان مسهــداً ، أو أجـر في الاغـلال مصفداً ، أحب إليَّ من أن ألقى الله ورسـوله يـوم القيامـة ظالماً لبعض العباد ، وغاصباً لشيء من الحطام. . . »[1] .

إن الإيمـان بهذه المحكمـة هو الـذي يحمل إنسـاناً أن يقـرب حـديدة محمـاة إلى يد أخيـه الذي كـان يرغب بـالمحابـاة في بيت المال ، وعندما يرتفع صراخ الأخ يوجه إليه النصيحة قائلاً :

« ثكلتك الثواكل يا عقيـل ! أتئن من حديـدة احماهـا إنسانهـا للعبه ، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه . . . »

أيمكن أن ينخدع إنسان له مثل هذا الإيمان؟
أيمكن بالرشوة ابتياع ضمير إنسان كهذا؟ .

أيمكن بـالوعـد والوعيـد حـرف مسيـرتـه من طـريق الحق إلى طريق الباطل؟

يقول القرآن المجيد :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُـونَ يَـٰوَيْلَتَنَـا مَـالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَـادِرُ صَغِيـرَةً وَلَا كَبِيـرَةً إِلَّآ أَحْصَـٰهَا . . . ﴾ [سورة الكهف ، من الآية : ٤٩]

وهكـذا تنبعث في روح الإنسـان مـوجـة قـويـة من الإحسـاس

(١) «نهج البلاغة » الخطبة ٢٢٤ .

بـالمسؤولية إزاء كـل عمـل من أعمـالـه تحـول بينـه وبين الضيـاع والانحراف نحو الظلم والعدوان .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ لو لم يكن هناك عالم آخر بعد هذه الحيـاة الدنيـوية المحـددة والمؤقتة ، فما الذي كان سيحدث؟

٢ ـ لمـاذا يسعى بعض الـذين ينكـرون المبـدأ والمعـاد إلـى التخلّص من الحياة بالانتحار؟

٣ ـ مـا هي الاختلافـات بين محكمة يـوم القيـامـة والمحـاكم في هذه الدنيا؟ .

٤ ـ ما تأثير الإيمان بالمعاد على أعمال الإنسان؟ .

٥ ـ مـا الذي قـاله أميـر المؤمنين عليه السـلام لأخيه عقيـل؟ ماذا كان عقيل يريد منه؟ ماذا كان جوابه له؟ .

* * *

الدرس الثالث

في أعماقنا مثال لمحكمة يوم القيامة

لما كانت قضية الحياة بعد الموت ومحكمة يوم القيامة العظيمة تعتبر قضية جديدة على إنسان يعيش في هذه الدنيا الضيقة المحدودة فإن الله أوجد لنا مثالاً مصغراً لتلك المحكمة في هذه الدنيا ، هي محكمة الضمير ، إلاّ أنها كما قلنا صورة مصغرة لها .

دعونا نوضح هذا الموضوع :

يحاكم الإنسان على الأعمال التي يقوم بها في عدة من المحاكم . أولاها هي المحاكم البشرية العادية ، بكل ما فيها من ضعف ونقص وانحرافات .

وعلى الرغم من ان لهذه المحاكم بعض التأثير في تخفيف نسبة ارتكاب الجرائم ، إلاّ أن الأسس التي أقيمت عليها هذه المحاكم ليست أصلاً قادرة بتحقيق العدالة كاملة ، ولا يمكن أن ينتظر منها ذلك . فالقوانين الموضوعة والقضاة الفاسدون وتفشي

الرشوة والمحسوبيات والمنسوبيات والمناورات السياسية وآلاف الأمور الأخرى تؤدي كلها إلى إضعافها إلى درجة يمكن القول معها بأن عدمها خير من وجودها ، وذلك لأن وجودها يساعد على تنفيذ مآرب المتنفذين المشؤومة .

وحتى لو كانت قوانينها عادلة . وقضاتها متقين وواعين ، فإن هناك الكثيرين من المجرمين القادرين على إخفاء معالم جرائمهم أو الماهرين الذين يستطيعون تزييف المستندات والأدلة بحيث لا يجد القاضي طريقه بوضوح ، فيجردون القوانين بذلك من محتواها .

المحكمة الثانية التي يحاكم فيها الإنسان هي محكمة « نتائج الأعمال » .

إن لأعمالنا آثاراً ونتائج تصيبنا على المدى القريب أو البعيد . وإذا لم يكن هذا حكماً عاماً ، فإنه يصدق في الأقل بالنسبة لكثير من الناس .

لقد رأينا حكومات شيدت حكمها على الظلم والجور والاعتداء وارتكبت كل جريمة شاءت ، ولكنها في النهاية وقعت في فخاخ نصبتها بنفسها وسقطت في شباك هي التي نسجت خيوطها ، فحاقت بها ردود أفعالها ، فانهارت وتلاشت حتى لم يبق لها أثر .

ولما كانت نتائج الأعمال هي العلاقة بين العلّة والمعلول والعلائق الخارجية ، فقلما استطاع أحد أن ينجو من مخالبها بالتزوير والتزييف ، كما يفعلون في المحاكم العادية . ولكن كل ما في الأمر إن هذه المحاكم ليست عامة وشاملة ، ولهذا فهي

ليست قادرة على جعلنا في غنى عن محكمة يوم القيامة .

أما المحكمة الثالثة ، وهي أدق وأقسى من محاكم النوع الثاني ، فهي محكمة الضمير .

في الواقع ، بمثلما أن المنظومة الشمسية بنظامها العجيب قد تمثّلت مصغرة جداً في قلب الذرة ، كذلك يمكن القول بأن نظام محكمة يوم القيامة قد تمثّل مصغراً في داخلنا .

إن في أعماق الإنسان قوة غامضة يطلق عليها الفلاسفة اسم « العقل العملي » ، ويسمْيها القرآن « النفس اللوّامة » ، ويصطلح عليها المعاصرون باسم « الضمير » أو « الوجدان » .

فما أن يقوم الإنسان بعمل ما ، خيراً كان أم شراً ، حتى تعقد هذه المحكمة جلسة بدون ضوضاء ولا تشريفات ، ولكن بكل جد ووفق الأُصول ، وتبدأ المحاكمة ، ويصدر الحكم ، ثواباً أو عقاباً ، يتم تنفيذه بهيئة آثار نفسية .

وقد يكون عقاب المجرمين أحياناً من الشدة والقسوة بحيث يتمنى المجرم الموت ويستقبله بكل ترحاب ويفضله على الحياة ، ويكتب في وصيته : انتحرت تخلصاً من عذاب الضمير !

وأحياناً يكون الثواب على عمل الخير كبيراً يشيع الفرحة والسرور في نفس فاعله ويضفي عليه حالة من الاطمئنان والهدوء النفسي مما يصعب وصف ما فيه من العذوبة واللذة .

إن لهذه المحكمة خصائص معيّنة :

١ ــ في هذه المحكمة قاضيها وشاهدها ومنفذ أحكامها

والمتفرج فيها واحد ، وهو الضمير الذي يشهد ويقضي ويصدر الحكم ثم يشمر عن ساعد الجد وينفذ الحكم .

٢ ـ في هذه المحكمة بخلاف ما يجري في المحاكم العادية التي يكثر فيها الضوضاء والمظاهر ، وقد تطول فيها محاكمة قضية واحدة سنوات طوالاً ـ تجري المحاكمة بسرعة البرق في أكثر الحالات إلاَّ إذا اكتنف القضية بعض الغموض مما يتطلب بعض الوقت لفحص أدلة القضية وإزاحة سجف الغفلة عن نظر القلب ، ولكن بعد التأكد يكون صدور الحكم قطعياً .

٣ ـ الحكم في هذه المحكمة يتم في مرحلة واحدة ، فلا استئناف ولا تمييز ، بل هو حكم نهائي باتّ .

٤ ـ هذه المحكمة لا تصدر أحكام العقوبات فقط ، بل هي تحكم بالمكافأة والاثابة . أي إنها محكمة تنظر في قضايا المجرمين والمحسنين معاً ، فتعاقب المسيء وتثيب المحسن .

٥ ـ عقوبات هذه المحكمة لا تشبه عقوبات المحاكم العادية ، إذ ليس فيها سجون حقيقية ، ولا سياط للجلد ، ولا أعواد للشنق ، ولا محرقة للحرق ، ولكن عقابها يكون أحياناً خارقاً وسجنها قاسياً بحيث ان الدنيا على سعتها تضيق بالإنسان ، كأضيق سجن انفرادي في سجن رهيب .

وعليه ، فإن هذه المحكمة ليست تشبه أياً من المحاكم العادية ، بل هي من نوع محكمة يوم القيامة . إن هذه المحكمة من العظمة بحيث إن القرآن يقسم بها كما يقسم بمحكمة المعاد ، فيقول :

﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ ٱلإِنْسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [سورة القيامة ، الآيات من : ١ ـ ٤]

بديهي إن هذه المحكمة ، لكونها دنيوية على كل حال ، فيها من النقائص ما لا يجعلنا نستغني عن محكمة يوم القيامة ، وذلك :

١ ـ لأن نطاقها ضيق لا يستوعب كل شيء ، بل تتناسب مع نطاق تفكير الإنسان نفسه وإدراكه .

٢ ـ هنالك أشخاص على درجة من المكر والدهاء بحيث إنهم يستطيعون أن يخدعوا حتى ضمائرهم ويغشوها .

٣ ـ قد يكون نداء الضمير في بعض المجرمين من الضعف بحيث إنه لا يصل إلى مسامعهم .

وهكذا يتبيّن لنا أن وجود المحكمة الرابعة ، محكمة يوم القيامة ، أمر لا بد منه .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ كم محكمة يحاكم فيها الإنسان في الواقع؟ .
٢ ـ ما هي خصائص المحكمة الأولى ، وما اسمها؟ .
٣ ـ ما هي مميزات المحكمة الثانية؟
٤ ـ ما هي خصائص المحكمة الثالثة؟
٥ ـ عدد نقاط ضعف محكمة الضمير ومميزاتها .

الدرس الرابع

المعاد في تجليات الفطرة

يقولون إن معرفة النفس تنبع من الفطرة وجبلة الإنسان . وإذا استطلعنا ضمير الإنسان الواعي وغير الواعي لتبيّن لنا إيمانه وتعلّقه بمبدأ فيما وراء الطبيعة يراه هو الذي خلق هذا العالم خلق عليم ، ووفق برنامج ، ومن أجل هدف معيّن .

إلَّا أن هذا لا يقتصر على «التوحيد ومعرفة الله» ، فجميع أصول الدين وفروعه يجب أن تكون في الفطرة أيضاً ، وإلَّا فإن الانسجام بين أجهزة « التشريع » و « التكوين » لا يتحقق (فتأمل!) .

ولكننا إذا ألقينا نظرة فاحصة في قلوبنا واستطلعنا أعماق أرواحنا ، لسمعنا بأذن أرواحنا تمتمة تقول : إن الحياة لا تنتهي بالموت ، لأن الموت نافذة على عالم البقاء!

ولكي تتجلى لنا هذه الحقيقة لا بد لنا من التنبه إلى النقاط التالية :

١ ـ حب البقاء :

إذا كـان الإنسـان قـد خلق لكي يمـوت ويفنى ، فـلا بـد أن يحب الفنـاء وأن يستمتـع بلذة المـوت في نهـايـة عمـره . ولكننـا نشهـد أن مـلامـح المـوت (بمعنى العـدم) لم تكن في يـوم من الأيـام ممـا يثيـر البهجـة في قلب الإنسـان ، بـل إنـه ، بخـلاف ذلك ، يهرب من رؤية الموت بكل ما أوتي من قوة .

هذه الحقيقة تؤكدها جهود الإنسان التي يبذلها لاطالة عمـره ، وللبحث عن اكسيـر الشباب ، وللعثـور على ماء الحيـاة . إن هـذا التعلق بأذيال الحيـاة لدليـل على إننا قـد خلقنا للبقـاء ، لا للموت إذ لو كنا قد خلقنا للفناء لما أحببنا الحياة إلى هذا الحد .

إن جميـع أنواع الحب البنـاءة الكامنـة في أعماقنـا تعمل على إيصالنا إلى الكمال والتكامل ، ومن ذلك حب البقـاء ، فهو يكمـل وجودنا .

لا تنسوا أننا نتابع بحث «المعاد» بعد قبـولنا بـوجود إلـه حكيم عليم . نؤمن بـأن كـلّ مـا أودعـه الله في داخلنـا كـان لحكمـة وحسـاب ، ومن هنا لا بـد أن تكـون هنـاك حكمـة في هـذا الحب الذي نشعر به للبقاء ، وما هذه الحكمـة سوى وجـود العالم الـذي يكون بعد هذا العالم .

٢ ـ يوم القيامة عند الماضين :

إن التـاريخ الـذي يشهد بـوجود الأديـان على اختـلافهـا عنـد الأقـوام الماضيـة منذ أقـدم الأزمنة ، يشهـد كـذلـك بـأن الإنسـان القديم كان يؤمن أيضاً « بالحياة بعد الموت » .

إن الآثار الباقية من الإنسان القديم، وخاصة من إنسان ما قبل التاريخ ، فيما يتعلق بطراز تشييد القبور ، وطريقة دفن الأموات لتدل جميعاً على حقيقة كونهم كانوا يعتقدون بالحياة بعد الموت .

وعليه لا يمكن اعتبار هذه العقيدة العميقة الجذور في تاريخ البشر عقيدة بسيطة ، ولا كونها عادة لقنت لهم تلقيناً .

إننا كلما صادفنا في تاريخ الإنسان عقيدة ذات جذور عميقة ومستمرة على امتداد العصور ، أدركنا أنها عقيدة فطرية ، إذ إن الفطرة وحدها هي التي تستطيع أن تقاوم مرور الزمان والتقلبات الاجتماعية والفكرية المختلفة ، وتبقى ثابتة ، أما العادات والرسوم الخارجية فما أسرع ما تتبدل أو يلفها النسيان بمرور الزمان .

إنك إذ تلبس الطراز الفلاني من الملابس إنما أنت تساير العادات أو الرسوم المتبعة ، وهذا سرعان ما يعتوره التغيير والتبدل بتقادم الزمان وعوامل أُخرىٰ كثيرة .

أما حب الأم لطفلها فإنه غريزة متمكنة جبلت عليها طبيعتها ، لذلك لا ينتابه أي تبدل مهما تغيرت الظروف والأحوال ، بل تظل شعلته ملتهبة ، لا يخفف منه تعاقب الأيام ، ولا يحول لونه بغبار النسيان ، وكل جاذبية نابعة من داخل الإنسان فهي من الفطرة الكامنة فيه .

عندما يقول العلماء :

« لقد أثبتت الدراسات الدقيقة أن الأقوام الأولى البدائية من

البشر كانت تؤمن بنوع من الأديان وذلك لأنهم كانوا يدفنون موتاهم بطريقة خاصة ، ويدفنون معهم أدوات عملهم ، وبهذا يمكن إثبات أنهم كانوا يعتقدون بوجود العالم الآخر »[1] .

ندرك أن تلك الأقوام قد تقبلوا فكرة وجود عالم آخر بعد الموت ، وإن أخطأوا السبيل إليه ، ظانين أنه لا يختلف بشيء عن عالمهم الأول ، وأن الأدوات التي كانوا يستعملونها في الدنيا تنفعهم في العالم الآخر أيضاً .

٣ ــ إن محكمة (الضمير) دليل آخر على أن فكرة المعاد فطرية

سبق أن قلنا اننا نشعر بكل وضوح أن هناك في داخلنا محكمة تنظر في أعمالنا وأقوالنا، تثيبنا على الحسنة منها ، فنحس على أثر ذلك بالراحة أو الاطمئنان والهدوء النفسي والفرح والنشاط مما لا يتأتى لقلم أن يصفه .

كما أنها تعاقبنا على السيئة منها ، وعلى الأخص الذنوب الكبيرة ، فعقابها عليها يكون من الشدة والقسوة بحيث تحيل الحياة كالعلقم مرارة .

كثيراً ما لوحظ أن مجرمين بعد أن يرتكبوا جريمة كبرى ، كالقتل ، ويفلتون من قبضة العدالة ، يعودون ويسلمون أنفسهم إلى المحكمة ، ويصعدون المشانق طوعاً ، قائلين انهم يريدون الخلاص من عذاب الضمير .

عندما يمعن المرء فكره في هذه المحكمة الباطنية ينتابه

(١) « علم الاجتماع » بقلم كينك » ص ١٩٤ .

العجب : كيف يمكن أن يوجد في داخلي مثل هذه المحكمة ، وأنا هذا الكائن الصغير ، ولا توجد في عالم الخليقة العظيم محكمة تتناسب معه؟ .

وبناء على ما تقدم نستطيع أن نثبت بثلاثة طرق فطرية الاعتقاد بالمعاد وبوجود عالم آخر بعد هذا العالم :

طريق حب البقاء .

طريق التاريخ الذي يؤكد إيمان البشر بهذه الفكرة منذ الأزمنة السحيقة .

طريق المثال المصغر الموجود في باطن الإنسان .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ كيف يمكن تمييز الأمور الفطرية عن غير الفطرية؟

٢ ـ لماذا يحب الإنسان البقاء؟ وكيف يعتبر هذا دليلاً على أن المعاد من الأمور الفطرية؟

٣ ـ هل آمنت الأقوام القديمة بالمعاد؟ كيف؟

٤ ـ كيف تقوم محكمة الضمير بمكافأتنا أو بمعاقبتنا؟ اذكر نماذج لذلك .

٥ ـ ما العلاقة بين محكمة الضمير والمحكمة الكبرى يوم القيامة؟

* * *

الدرس الخامس

البعث في ميزان العدالة

إذا أمعنا النظر في نظام عالم الوجود وسنن الخلق نجد أن ثمة قانوناً يحكمها جميعاً ويضع كل شيء في مكانه المناسب .

في جسم الإنسان نرى هذا النظام العادل قد ركّب فيه بدرجة من الدقة المتناهية بحيث إن أقل اختلاف في توازنه يؤدي به إلى الاصابة بالمرض ، أو إلى الموت .

خذ مثلاً ، تركيب القلب ، أو العين ، أو الدماغ ، تجد أن كل جزء فيها قد ركب في مكانه المناسب بكل دقة وبالقدر اللازم . إن هذا التنظيم المناسب العادل لا يقتصر وجوده في جسم الإنسان، بل هو سائد في كل أجزاء عالم الخليقة ، إذ :

« **بالعدل قامت السموات والأرض** » .

إن حجم الذرة من الدقة والصغر بحيث أنك تستطيع أن تضع ملايين منها على رأس إبرة ، فتأمل كيف يجب أن يكون تركيبها من الدقة والتنظيم بحيث يمكن لها أن تديم حياتها ملايين السنين .

إن هـذا نـاشىء من العـدالـة في الحسـابـات الـدقيقـة لنـظام الالكترونات والبروتونات ، وما من جهـاز صغير أو كبيـر يخرج عن دائرة هذا النظام العجيب .

فهل الإنسان حقاً كائن استثنـائي؟ وإنه بقعـة سوداء في جسـد هـذا العـالم الكبيـر الأبيض؟ وإنـه لهـذا السبب يجب أن يسـرح ويمرح حراً ، لا يلتـزم نظامـاً ويرتكب مـا يشاء من ظلم واعتـداء؟ أم إن هناك سراً في هذا الأمر؟

حرية الإرادة والاختيار :

الحقيقـة هي إن الإنسان يختلف اختـلافـاً أسـاسـاً عن سـائـر الكـائنـات في عـالـم الـوجـود ، وهـو إنـه يملك حـريـة الإرادة والاختيار .

لماذا خلقه الله حراً ، وأوكل إليـه اتخاذ القـرارات والقيام بمـا يشاء من أعمال؟

السبب هو إنه لو لم يكن حراً لمـا استطاع أن يحقق تكـامله ، فهذا الامتياز الكبير هو الـذي يضمن تكامله الأخـلاقي والمعنوي . لو أن شخصاً أجبـر بالقـوة على إعانـة المستضعفين والقيام بـأعمال أخـرى تفيد المجتمـع ، فإن هـذه الأعمال قـد تسير في طـريقها ، ولكنهـا لن تكـون دافعـاً لهـذا الشخص على التكـامـل الأخـلاقي والإنسـاني أبداً . أمـا إذا قام بعشـر تلك الأعمـال الخيـرة بمحض إرادته يكون قد تقدم بـالنسبة نفسهـا على طريق التكـامل المعنـوي والأخلاقي .

بناء على ذلك ، فـإن أول شرط من شـروط التكامـل المعنوي

والأخلاقي هو امتلاك حرية الإرادة والاختيار حتى يقوم الإنسان بالسير في هذا الطريق بمحض رغبته وإرادته ، لا بالجبر والإكراه ، كما هي حال عناصر الطبيعة الأُخرىٰ ، فالله سبحانه وتعالى لم يهب الإنسان هذه الهبة العظيمة إلَّا لهذا الغرض السامي .

بيد أن هذه النعمة الكبرى أشبه بالورد الذي يحيط به الشوك ، وهو سوء استغلال الناس لهذه الحرية والتلوث بالظلم والفساد والذنوب .

بديهي إن الله لم يكن يمنعه شيء من أن يعاقب كل ظالم فوراً بعقاب يجعله يقتلع من رأسه كل فكرة عن تكرار ذلك ، كأن يشل يده ، أو يعمى بصره ، أو يخرس لسانه .

صحيح إن أحداً ، في هذه الحالة ، لن يجرؤ على إساءة استعمال حريته ولن يقرب الإثم طوال حياته ، غير أن هذه العفة والتقوى تكون إجبارية قسرية ، ولا تعتبر مدعاة لافتخار الإنسان واعتزازه ، بل تكون نتيجة الخوف من العقاب الصارم الفوري .

لذلك لا بد أن يكون الإنسان حراً وأن يجتاز الامتحانات التي يقررها له الله ، وأن لا يعاقب فوراً ، إلَّا في حالات استثنائية ، لكي يستطيع أن يكشف عن قيمته في الوجود .

إلَّا أن هناك موضوعاً آخر ، وهو إنه إذا استمرت الحال على هذا المنوال واختار كل طريقاً ، فإن قانون العدالة الإلٓهية الذي يسيطر على عالم الوجود يكون قد انتقض .

من هنا يتبيّن لنا أن هناك محكمة ودار عدالة قد عينت

للبشر ، وأن على الجميع الحضور فيها بدون استثناء لينال جزاء أعماله بموجب عدالة عالم الخلق .

أيصحّ أن يقضي أشخاص مثل نمرود وفرعون وقارون وجنكيز أعمارهم يظلمون ويعتدون ويفسدون ، ثم لا يكون وراءهم حساب ولا عقاب؟

أيجوز أن يقف المجرمون والمتقون على قدم المساواة في كفة ميزان العدالة الإلهية؟

أو كما يقول القرآن :

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [سورة القلم، الآيتان : ٣٥ ــ ٣٦]

﴿ . . . أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾

[سورة صٓ ، من الآية : ٢٧]

صحيح إن بعض المجرمين ينالون عقابهم على أعمالهم في هذه الدنيا ، أو جزءاً من ذلك العقاب ، وصحيح إن مسألة محكمة الضمير مسألة مهمة ، وصحيح أيضاً إن نتائج الذنوب والظلم والتعسف تحيق أحياناً بالإنسان نفسه ، ولكننا بإمعان النظر في هذه الحالات الثلاث ندرك أنها ليست عامة شاملة بحيث تعم كل ظالم ومذنب فينال كل نصيبه من العقاب بما يتناسب وجريمته ، وأن هناك الكثيرين الذين يهربون من مخالب عقاب محاكمات الضمير ونتائج أعمالهم ، أو لا ينالون من العقاب ما يكفي .

فلأمثال هؤلاء ، ولكي تكون هناك محكمة عدل عامة لمحاسبة الناس حتى على مقدار رأس الإبرة من العمل الحسن أو السيء ، تقام محكمة العدل يوم القيامة ، وإلّا فإن مبدأ العدالة لا يمكن أن يتحقق .

بناء على ذلك ، فإن القبول « بوجود الله » و « عدالته » يستدعي القبول بالبعث ومحكمة يوم القيامة ، ولا يمكن الفصل بين هذين أبداً .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ كيف قامت السموات والأرض بالعدل؟

٢ ـ لماذا وهب الإنسان نعمة حرية الإرادة والاختيار؟

٣ ـ ماذا كان سيحدث لو أن المسيئين نالوا عقابهم فوراً على جرائمهم في هذه الدنيا؟ .

٤ ـ لماذا لا نستغني بثواب أعمالنا ، وبمحكمة الضمير وبنتائج أعمالنا ، عن محكمة يوم القيامة؟

٥ ـ ما العلاقة بين «العدالة الإلّهية» و«المعاد»؟

* * *

الدرس السادس

مشاهدة البعث في هذا العالم

يستنتج من الآيات القرآنية أن عبدة الأصنام والكفار في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكونوا هم وحدهم الذين يستنكرون مسألة المعاد والحياة بعد الموت ويخشونها ، بل كانت أقوام في عصور سابقة ترى هذا الرأي ، وتسم القائلين به بالجنون ، ونقول :

﴿ ... هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ... ﴾

[سورة سبأ ، من الآيتان : ٧ ـ ٨]

نعم ، يومئذٍ كان الناس لجهلهم وقصر نظرهم يتهمون من يعتقد بعالم ما بعد الموت وبالحياة الأخروية بالجنون ، أو بالتقول على الله ، قائلين إن الزعم بانبعاث الحياة في المادة الميتة جنون .

والذي يلفت النظر هو إن القرآن يواجه هذه الأفكار بمجموعة

من الاستدلالات المختلفة التي تنفع الفرد العادي كما تنفع العالم المتبحر ، كلاً على قدر مستواه العقلي .

وعلى الرغم من ان شرح هذه الاستدلالات القرآنية يتطلب كتاباً منفصلاً ، فإننا نبادر إلى ذكر بعض نماذجها :

١ ـ يخاطبهم القرآن في بعض آياته قائلاً :

إنّكم ترون بأم أعينكم مشاهد من المعاد في حياتكم اليومية ، فترون كيف تموت الكئنات وكيف تعود إلى الحياة ، فكيف تشكون في المعاد بعد كل هذا؟ .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَـٰباً فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

[سورة فاطر ، الآية : ٩]

نجيل بانظارنا شتاءً في ملامح الطبيعة فنرى إمارات الموت ورائحته تشيع في كل مكان ، فالأشجار عارية من أوراقها وثمارها ، تقف خشبة جرداء جافة ، فلا زهرة ضاحكة ، ولا برعم متفتح ، ولا نبضات للحياة تنبعث من جنبات الصحارى وسفوح الجبال .

ثم يحل الربيع ، ويلطف الجو ، وينهمر المطر المحيي من السماء ، وإذا بحركة الحياة تجتاح الطبيعة بأسرها وتبدو جلية للعيان ، فتنمو النباتات وتورق الأشجار وتبرز البراعم والأزاهير ، وتبدأ الطيور تبني أعشائها بين الأغصان ، وينكشف الانبعاث العارم في كل شيء!

فلولا الحياة بعد الموت ما كنا لنشهد هذا المشهد يتكرر كل

عام . ولو كانت الحياة بعد الموت مستحيلة ، ويعتبر الكلام عليها جنوناً ، لما كان كل هذا يتجسد أمامنا ونراه بأعيننا ونتحسسه بحواسنا .

ولا فرق بين إحياء الأرض بعد موتها وإحياء الإنسان بعد موته .

٢ ــ وفي مواضع أخرى يأخذ القرآن بأيديهم ليتقدم بهم نحو بداية الخلق ، يصف لهم الخلق الأول . وعندما يتقدم أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وبيده قطعة عظم بالية ، ويصيح : يا محمد : « من يحيي العظام وهي رميم » وكأنه قد أتى بدليل لا يمكن دحضه لتنفيذ مسألة « المعاد » . فيأتي أمر الله إلى رسوله :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . . ﴾

[سورة يٓس ، من الآية : ٧٩]

لا فرق بين الخلق الأول والخلق المتجدد ، ولهذا تقول آية أُخرىٰ في عبارة قصيرة غنية بالمعنى :

﴿ . . . كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ . . . ﴾

[سورة الأنبياء ، من الآية : ١٠٤]

٣ ــ وقد يشير القرآن إلى قدرة الله العظيمة بحثّهم على النظر إلى هذا الكون الفسيح بسماواته وأرضه، فيقول :

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يٓس ، الآيتان : ٨١ ــ ٨٢]

كان الشاكون في هذه الأُمور أشخاصاً لم يتعد أفق تفكيرهم محيط بيوتهم الضيقة الحقيرة ، وإلّا لأدركوا أن العودة ثانية أسهل من الخلق الأول ، وأن إعادة الأموات إلى الحياة لا تعد شيئاً عصياً على قدرة الله الذي خلق السموات والأرض من قبل .

٤ ــ وأحياناً يعكس لهم انبعاث « الطاقات » قائلاً :

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [سورة يٓس ، الآية : ٨٠]

عندما نمحص هذا التعبير العجيب في القرآن ، مستعينين بالعلوم الحديثة ، يتبيّن لنا أن العلم يقول : عندما نحرق أخشاب شجرة ، فإن الحرارة المنبعثة من نيرانها هي الطاقة الحرارية نفسها التي كانت الشمس تعكسها عليها أثناء سنوات حياتها والمخزونة فيها ، مع إننا كنا نظن أن أشعة الشمس على الشجرة قد ماتت وتلاشت ، ولكننا هنا نراها قد عادت إلى الحياة مرة أخرى في لباس جديد .

إذن ، هل من الصعب على الله ـ الذي له هذه القدرة على أن يختزن لعشرات السنوات نور الشمس وحرارتها في جذع شجرة ، ثم في لحظة واحدة يخرج مخزونها ـ أن يحيي الأموات ؟[1] .

(١) نذكر بأن العلم الحديث يقول ان النباتات الخضر هي القادرة على استقبال نور الشمس فتحلل بواسطته غاز الكابونيك ، فتحتفظ بالكاربون في داخلها وتحرر غاز الأوكسجين ، وفي الوقت نفسه تختزن الطاقة الحرارية من الشمس .

وهكذا نلاحظ كيف أن القرآن باستدلالاته ومنطقه الواضح يرد على الذين يشكون في المعاد ويتهمون القائلين به بالجنون، ويخرس ألسنتهم، بإثبات إمكان المعاد استناداً إلى الأدلة التي أوردنا جانباً منها.

* * *

فكّر وأجب

١ ـ لماذا كان المشركون يأخذهم العجب من فكرة المعاد؟

٢ ـ كيف نرى مشهد المعاد في مملكة النبات كل عام؟.

٣ ـ يعتبر القرآن في بعض آياته دورة الحمل والولادة دليلاً على المعاد، لماذا؟

٤ ـ ما هو بعث الطاقات؟

٥ ـ لماذا استدل القرآن بالشجر الأخضر؟

* * *

الدرس السابع

المعاد وفلسفة الخلق

يتساءل الكثيرون : لماذا خلقنا الله؟

وقد يتجاوزن ذلك أحياناً ليسألوا : بل ما هي فلسفة خلق هذا العالم الكبير؟

إن البستاني يزرع الشجرة من أجل ثمرها ، ويحرث الأرض ويبذر الحب من أجل غلتها ، فمن أجل أي شيء خلقنا بستاني الخليقة؟

أكان هناك ما ينقص الله حتى يستكمله بالخلق؟ إذا كان الأمر كذلك فهو إذن محتاج ، ولكن الاحتياج لا يأتلف ومقام الربوبية ولا نهائية وجوده .

للإجابة عن هذا السؤال يمكن قول الكثير ، ولكن من الممكن تلخيص ذلك في بضع جمل واضحات ، وهي :

الخطأ الكبير هو إنا نقارن صفات الله بصفاتنا نحن . فنحن لكوننا كائنات محدودة ، نقوم بأعمالنا لكي نسد حاجة من

حاجاتنا ، فندرس مثلاً لسد نقصنا من العلم ، ونشتغل لسد حاجتنا إلى المال ، ونفتش عن الطب والعلاج لضمان سلامتنا .

ولكن فيما يتعلّق بالله الذي لا نهاية له من جميع الجهات ، علينا أن نبحث عن أهداف ما يفعله خارج ذاته . فهو لا يخلق لمنفعة ولا لسد حاجة ، بل هدفه من ذلك هو أن يفيض بلطفه ووجوده على عباده .

إنه شمس مشعة لا نهاية لها ، تشع بنورها ، لا لحاجة بها إلى ذلك ، بل لكي ينعم الجميع بنور وجودها . إن من مقتضيات ذاته اللامتناهية الفياضة أن يأخذ بيد الكائنات ويتقدم بها على طريق التكامل .

إن خلقنا من العدم يعتبر بذاته خطوة تكاملية بارزة ، كما ان ارسال الرسل وانزال الكتب السماوية والشرائع والقوانين ، إن هي إلّا قواعد لهذا التكامل .

هذه الدنيا أشبه بجامعة كبيرة، ونحن طلبتها!
هذه الدنيا أشبه بمزرعة أعدت لنا ونحن زارعوها!
هذه الدنيا متجر أولياء الله!

فكيف يمكن أن نقول إن ليس لهذا الخلق هدف ، مع أننا إذا نظرنا حولنا وتفحصنا جميع أجزاء الموجودات جزءاً جزءاً لوجدنا أن لكل منها هدفاً .

ففي أجهزة أجسادنا لن تجد جهازاً بغير هدف ، وحتى الأهداب ولتقعر باطن القدم أهدافها .

فكيف يمكن أن يكون لأجزاء أجسامنا أهداف ، ولا يكون

لمجموع تلك الأجزاء أي هدف؟

وإذا تجاوزنا كياننا وخرجنا إلى العالم الخارجي الكبير، وجدنا ان لكل جهاز فيه هدفاً، فلسطوع الشمس هدف، ولهطول المطرَ هدف، ولتركيب الهواء هدف، فهل يمكن أن لا يكون للمجموع أي هدف؟

الحقيقية هي إن في قلب هذا العالم الفسيح لوحة كبيرة تعرض الهدف النهائي الذي لا نستطيع رؤيته أحياناً ولأول وهلة، لعظمته. لقد كتب عليها، «التربية والتكامل».

* * *

والآن، بعد أن تعرفنا على هدف الخلق على وجه العموم، يدور الكلام على ما إذا كانت هذه الحياة المعدودة أيامها، وبكل ما فيها من مشكلات وحرمان ومصائب، هي هدف الخلق؟

أفرض أني عشت في هذه الدنيا ستين سنة، وأني أعمل كل يوم من الصباح حتى المساء للحصول على القوت، وأعود إلى البيت متعباً منهوكاً، وتكون النتيجة أنني أستهلك بضعة أطنان من الطعام والماء، وأتحمل العناء والتعب لأشيد داراً، ثم بعد ذلك أترك كل شيء وأخرج من هذا العالم، فهل ترى هذا الهدف يستحق أن يستدعيني إلى هذا العالم المليء بالآلام والشقاء؟

لو أن مهندساً شيد عمارة عظيمة وسط الصحراء، وقضى سنوات طوالاً في تكميلها وتنظيمها وتجهيزها بكل وسائل الراحة، فإذا سئل: ما الغاية من بنائك هذه العمارة؟ قال: كل هدفي هو أن يمرّ بها عابر سبيل ولو مرة ويستريح فيها ساعة أو بعض ساعة!

أفلا يستولي علينا العجب جميعاً ، ونعترض قائلين : إن استراحة ساعة لعابر سبيل لا تستوجب كل هذا العناء والتعب!

لذلك ، فإن الذين لا يؤمنون بالبعث وبالحياة بعد الموت ، لا يرون لهذه الدنيا أي هدف وأنها فارغة وعبث . وهذا القول كثيراً ما يصدافنا في كتابات الماديين ويكررونه إلى الحد الذي يقودهم إلى الانتحار ، نتيجة لاصابتهم بالتعب والملل من حياة لا هدف لها .

إن ما يعطي لهذه الدنيا هدفاً ويجعلها معقولة ومنطقية هو اعتبارها مرحلة متقدمة لعالم آخر ، وان ما فيها من مشكلات ووضع كل هذه المقدمات إنما الهدف منه أن يستفيد منه الإنسان في مسيرة حياة خالدة .

كنا قد ضربنا بهذه المناسبة مثلاً الجنين في رحم أمه ، فلو كان له شيء من العقل والإدراك ، ويقال له : إن الحياة التي تقضيها هناك ليس بعدها شيء ، لاعترض قائلاً : ما معنى أن أكون سجيناً في هذا المكان وفي هذا المحيط الضيق ، أطعم الدم ، مطوي الأطراف ، مرمياً في هذه الزاوية المظلمة ، ثم لا يكون بعد هذا شيء . ما الذي استهدفه الخالق بهذا الخلق؟

أما إذا أكدوا له بأن هذه الأشهر القليلة ليست سوى مرحلة عابرة يجري فيها إعدادك للخروج إلى عالم جديد وحياة أطول وفي دنيا هي أوسع بكثير من دنياك الضيقة هذه ، مضيئة ورائعة ، وفيها نعم كثيرة ، عندئذٍ يقتنع الجنين بأن الدورة التي يقضيها في رحم أمه ليست خالية من هدف ، وهو هدف جليل يستحق تحمل عناء هذه الفترة العابرة .

يقول القرآن المجيد :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة الواقعة، الآية : ٦٢]

خلاصة القول : إن هذا العالم يصرخ بكل كيانه أن هناك عالماً بعده ، وإلّا لكانت هذه الدنيا لغواً وعبثاً لا طائل وراءه .

استمع إلى ما يقوله القرآن في ذلك :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

[سورة المؤمنون ، الآية : ١١٥]

أي لولا المعاد ـ الذي يعبر عنه القرآن بالرجوع إلى الله لكان خلق الإنسان عبثاً .

وعليه ، فإن فلسفة الخلق تقول : لا بد من وجود عالم آخر بعد هذا العالم .

فكّر وأجب

١ ـ لماذا لا يمكن مقارنة صفات الله بصفات مخلوقاته؟
٢ ـ ما الهدف من خلقنا؟
٣ ـ أيمكن أن تكون هذه الحياة الدنيا هي الهدف من خلق الإنسان؟
٤ ـ ما الذي نتعلمه من المقارنة بين الجنين والحياة الدنيا؟
٥ ـ كيف يستدل القرآن بخلق هذا العالم على وجود عالم آخر؟

* * *

الدرس الثامن

بقاء الروح دليل على البعث

لا يعرف أحد منذ متى بدأ الإنسان يفكر في وجود «الروح» وكل ما يمكن قوله هو ان الإنسان أدرك منذ البداية أن هناك اختلافاً بينه وبين كائنات هذا العالم الأُخرىٰ : الاختلاف بينه وبين الصخرة ، والخشبة ، والجبل ، والصحراء ، والحيوانات .

كان الإنسان قد جرّب حالة النوم ، وكذلك حالة الموت . كان يرى أن الإنسان ، بدون أن يتغير شيء في جسمه وهيئته ، يطرأ عليه تبدل كبير في حالته أثناء النوم وعند الموت . من هنا أدرك الإنسان أن فيه « جوهراً » هو غير هذا الجسم الذي يراه .

وكان يرى أنه يختلف عن سائر الحيوانات ، لأنه كان يستطيع أن يقرر أمراً وينفذه بكل حرية وحسبما يتراءى له ، بينما الحيوانات كانت محكومة لغرائزها التي تسيطر على حركاتها وتجبرها عليها .

وعلى الأخص كان يرى مشاهد في عالم النوم ، في الوقت

الذي كانت فيه أجهزة الجسم خامدة وجسده ملقى في إحدى الزوايا. فأدرك من هذا أن هناك قوة غامضة تهيمن على كيانه، فأطلق عليها اسم «الروح».

وعندما وضع العلماء أسس الفلسفة، وضعوا «الروح» كقضية فلسفية كبرى ضمن القضايا الأُخرىٰ. ومن ثم راح الفلاسفة يبدون آراءهم عن ماهية «الروح»، حتى بلغ تعداد تلك الآراء نحو ألف رأي ونظرية، حسب قول بعض الفلاسفة الإسلاميين، وتدور كلها حول «الروح» وما يتعلق بها. إن الكلام في هذا يطول، غير ان الأهم الذي ينبغي أن يعرفه المرء يتعلق بالجواب عن هذا السؤال:

هل الروح مادة أم لا؟ وبعبارة أُخرىٰ: هل هي مستقلة أم إنها من خصائص الدماغ والاعصاب الكيمياوية والفيزياوية؟

ثمة فريق من الفلاسفة الماديين يصرون على أن الروح والظاهرات الروحية مادية وأنها من خصائص خلايا الدماغ، وعندما يموت الإنسان، تموت الروح معه، بمثل الساعة التي نحطمها بضربة مطرقة فتتناثر أجزاؤها، ويتوقف عملها على أثر ذلك.

وفي الطرف المقابل لهؤلاء يقف الفلاسفة الإلٓهيون، ومعهم بعض الفلاسفة الماديين الذين يقولون بأصالة الروح. يعتقد هؤلاء إن الروح لا تموت بموت الإنسان، بل تستمر في الحياة.

ولإثبات هذه المقولة، أي أصالة الروح واستقلالها وباقئها يذكرون أدلة معقدة كثيرة، لا يسعنا هنا إلاَّ أن نورد بعض أهمها وأوضحها بعبارات بسيطة لكي يعيها شبابنا العزيز:

١ ــ لا يمكن حشر عالم كبير في محيط ضيق:

افرض إنك على ساحل البحر وخلفك جبال شاهقة نحو السماء ، والأمواج العاتية تصفع الصخور بقوة وترتد عنها إلى البحر صاخبة . والصخور الضخمة عند سفح الجبل تنبىء عن الغوغاء في أعلى الجبل والسماء الزرقاء من فوق قمم الجبال تضج ليلاً عظمة وجلالاً .

تتطلع لحظة إلى هذا المشهد ، ثم تغمض عينيك وتسترجع في ذهنك المشهد كما رأيته حجماً وعظمة .

لا شك أن هذه الخريطة الذهنية بكل حجمها وعظمتها تحتاج إلى مكان ولا يمكن أن ترسم على خلايا الدماغ الصغيرة ، وإلاَّ فإن هذه الخريطة الكبيرة يجب أن ترتسم على نقطة صغيرة ، في الوقت الذي نرى المنظر في خيالنا بحجمه الطبيعي .

يدل هذا على أن هناك « جوهراً » غير الدماغ وخلاياه هو الذي يستطيع أن يحتفظ بكل مشهد وخريطة مهما كبُر حجمها . ولا شك إن هذا الجوهر لا بد أن يكون ما وراء عالم المادة ، إذ ليس في عالم المادة شيء يشبهه .

٢ ــ خصائص الروح الخارجية :

إننا نعرف الكثير من الخصائص الفيزياوية والكيمياوية في أجسامنا ، فحركات المعدة والقلب فيزياوية ، والترشحات والافرازات وعصارات المعدة كيمياوية . وأمثال هذه كثيرة في جسم الإنسان .

فإذا كانت الروح والفكر مادية وناشئة من خواص خلايا الدماغ الفيزياوية والكيمياوية ، فلماذا نرى خواصها تختلف عن خواص الجسم .

إن الفكر والروح يربطاننا بالخارج ويخبراننا بما يحدث حولنا . أما الخصائص الكيمياوية كالافرازات والعصارات ، والفيزياوية كحركات العين والقلب واللسان ، لا تملك مثل تلك الخصائص مطلقاً .

وبعبارة أخرى ، إننا نشعر جيداً بأننا مرتبطون بعالمنا الخارجي ، ونعرف الكثير عنه . فهل دخل العالم الخارجي إلى داخلنا؟ طبعاً ، لا . إذن ، ما الحكاية؟

لا شك إننا نرى خارطة العالم ، وإن خصوصية الروح في الظهور الخارجي هي التي تجعلنا ندرك العالم خارج وجودنا . إنك لا تجد هذه الخصوصية في أي من الظواهر الفيزيائية ولا في التفاعلات الكيماوئية فى أجسامنا ، فتأمل!

وهذا يعني ، بعبارة أخرى ، أن التعرف على الكائنات الخارجية العينية يتطلب نوعاً من الإحاطة العامة ، وهذه ليست من وظائف خلايا الدماغ ، فهذه إنما تتأثر بالعوامل الخارجية ، مثل سائر خلايا الجسم الأخرى .

هذا الاختلاف يدل على أن هناك فعالية أُخرىٰ في الجسم غير التغيرات الفيزياوية والكيمياوية ، فعالية تجعلنا نحيط بخارج وجودنا ، وما هذه سوى الروح ، تلك الحقيقة التي تتجاوز عالم المادة وخصائصها .

٣ ــ الأدلة التجريبية على أصالة الروح واستقلالها :

لحسن الحظ استطاع العلماء اليوم أن يثبتوا بطرق علمية وتجريبية مختلفة أصالة الروح واستقلالها ، وبذلك ردوا رداً حاسماً على الذين أنكروا استقلالية الروح وقالوا إنها من خصائص المادة :

١ ــ من تلك الدلائل التنويم المغناطيسي الذي أجريت عليه تجارب كثيرة جداً ، رآها بعضهم بأنفسهم وتأكدت لديهم . والذين لم يروا ذلك نورد لهم شرحاً بسيطاً لتلك التجارب :

هناك أشخاص يستطيعون بطرق علمية خاصة أن (ينوّموا) أشخاصاً آخرين يطلق عليهم اسم (الوسطاء). فيقوم المنوم بتنويم الوسيط بالايحاء إليه عن طريق التركيز الفكري ونظرات العين وغير ذلك ، فيروح الوسيط في نوم عميق ، ولكنه لا يشبه النوم العادي بل هو نوم يظل خلاله الارتباط بين المنوم والوسيط قائماً ، فيحدثه ويتلقى منه الجواب .

وبعد أن يصل الوسيط إلى حالة النوم هذه ، يرسل المنوم روح الوسيط إلى نقاط مختلفة ، وقد تعود باخبار جديدة ، أو تخبر عن أمور لم يكن الشخص النائم يعرف عنها شيئاً من قبل .

فهو مثلاً قد يتكلم بلغة لم يكن يعرفها من قبل ،
وقد يستطيع أن يحل مسائل رياضية معقدة ،

أو قد يكتب أموراً على صحائف موضوعة داخل صندوق مغلق بغير أن يفتحوه .

بل قد تظهر الروح نفسها أحياناً بهيئة أشباح أو ظلال واضحة

في بعض جلسات التنويم المغناطيسي ، وأمثال ذلك من الأمور التي شرحناها في كتاب «عود أرواح» .

٢ ــ إحضار الأرواح . أو الاتصال بأرواح الأموات وإحضارها إلى جلسات إحضار الأرواح ، مما يدل على أصالة الروح واستقلالها .

هنالك اليوم جمعيات روحية كثيرة منتشرة في مختلف انحاء العالم ، ويصدر عنها ـ كما يقول العالم المصري المعروف فريد وجدي ـ أكثر من ٣٠٠ مجلة وصحيفة ، وتعقد جلسات لاحضار الأرواح يشترك فيها شخصيات معروفة حيث تستحضر الأرواح ، فتقوم بأعمال خارقة للعادة .

وعلى الرغم من أن هناك عدداً من المشعوذين الذين يسيئون استعمال هذه الأمور بغير معرفة ، فيخدعون الناس ويبتزون أموالهم ، فإن حقيقة وجود هذه الحالة التّي يعترف بها العلماء المختصون لا يمكن انكارها[١] .

هذه كلها أدلة على أصالة الروح واستقلالها وبقائها بعد الموت ، وهي خطوة مؤثرة نحو المعاد والحياة بعد الموت .

٣ ــ ثمة أحلام ومشاهد نراها في عالم النوم تتجسم خلالها أحياناً حوادث مستقبلية ، وقد نكشف أحياناً عن أمور خفية إلى درجة لا يمكننا معها أن نعتبرها من باب الاتفاق والمصادفات ، وهذا أيضاً دليل على أصالة الروح واستقلالها .

(١) لمزيد من الاطلاع انظر كتابي «عود أرواح» و«معاد وجهن يس ازمركه» .

ومعظم الناس لا شك قد مرّت بهم في حياتهم مثل هذه الأحلام الصادقة ، أو أنهم في الأقل قد سمعوا بأن الحلم الذي رآه أحد أصحابهم قد تحقق بحذافيره بعد مدة من الزمن ، الأمر الذي يدل على أن الروح تستطيع خلال نوم الإنسان أن تتصل بعوالم أخرى وقد ترى بعض الحوادث التي ستقع في المستقبل .

جميع هذه الأُمور يشير بوضوح إلى أن الروح ليست مادة ، وليست نتيجة خصائص دماغ الإنسان الفيزياوية والكيمياوية ، بل هي حقيقة من حقائق ما وراء الطبيعة ، وإنها لا تموت بموت الجسد الذي كانت تحل فيه . وهذا ما يمهد الطريق للقبول بمسألة المعاد وعالم ما بعد الموت .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما الاختلاف بين الفلاسفة الإلٰهيين وبعض الماديين في قضية الروح؟

٢ ـ ما المقصود بعدم انطباق الكبير على الصغير باعتباره دليلاً على أصالة الروح؟

٣ ـ ماذا تعرف عن التنويم المغناطيسي؟

٤ ـ ماذا نقصد باستحضار الأرواح؟

٥ ـ كيف تكون الأحلام الصادقة دليلاً على أصالة الروح واستقلالها؟ .

* * *

الدرس التاسع

المعاد الجسماني والروحاني

من المسائل المهمة الأُخرىٰ التي تبرز في موضوع المعاد هو السؤال عما إذا كان المعاد «روحانياً» فقط، أم إنه يكون بعودة الروح والجسم معاً في العالم الآخر ، وإن الإنسان ، بروحه وجسمه نفسيهما إنما على مستو أفضل وأرفع ، سوف يواصل حياته في العالم الآخر .

كان فريق من الفلاسفة القدامى يعتقد بأن المعاد يكون بالروح فقط ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن الجسم تركيب خاص يختص بالعالم الدنيوي فحسب ، وبأن الإنسان يستغني عنه في العالم الآخر ، وانه يهرع إلى العالم الآخر بدون جسمه .

إلّا أن كبار العلماء والفلاسفة الإسلاميين يعتقدون أن عودة الإنسان إلى العالم الآخر يكون بروحه وبجسمه معاً ، صحيح إن هذا الجسم يتحول إلى تراب بعد الموت ، وإن ترابه يتشتت في أرجاء الأرض ويضيع ، ولكن الله القادر العالم يجمع كل ذرات الجسد يوم القيامة ويضفي عليها لباس الحياة مرة أخرى، وهذا

هو «المعاد الجسماني» لأنهم يرون أن عودة الروح أمر لا شك فيه ، ولما كان الجدل يدور حول عودة الجسم نفسه ، فقد عبروا عن ذلك بـ « المعاد الجسماني » .

على كل حال، إن الآيات القرآنية النازلة بهذا الخصوص، وهي كثيرة ومتنوعة، تشير كلها إلى «المعاد الجسماني» .

القرآن والمعاد الجسماني :

سبق أن تحدثنا عن الأعرابي الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بقطعة عظم بالية قائلاً :

« من يحيي العظام وهي رميم » ؟

فيجيبه الرسول صلى الله عليه وآله بأمر من الله :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

[سورة يّس ، الآيتان : ٧٩ ــ ٨٠]

وفي موضع آخر يقول القرآن :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [سورة يّس ، الآية : ٥١]

﴿ خُشَّعاً أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [سورة القمر، الآية : ٧]

ونحن نعلم إن الأجداث ، وهي القبور ، تكون موضع الأجساد التي أصبحت تراباً ، وليست موضع الأرواح .

لقد كان أكثر إنكار منكري المعاد يستند إلى عدم قدرتهم على تصوّر إمكان جمع التراب المتناثر في أرجاء الأرض وإعادة الحياة إليه :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

[سورة السجدة ، من الآية : ١٠]

فيرد عليهم الله قائلاً :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ١٩]

كان عرب الجاهلية يقولون :

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾ [سورة المؤمنون ، الآية : ٣٥]

كل هذه الآيات القرآنية وغيرها تدل دلالة واضحة على أن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله قد تحدث عن « المعاد الجسماني » لأن تعجب المشركين الجاهلين كان منصبّاً على هذا الجانب من الموضوع ، ولذلك بادر القرآن بإيراد نماذج من صور المعاد الجسماني في عالم النبات وغيره مما يراه الإنسان بعينه ، كأمثلة على الخلق الأول وعلى قدرة الله .

وبناء على ذلك فالإنسان إذا كان مسلماً وقارئاً للقرآن ، لا يمكن أن ينكر المعاد الجسماني ، لأن إنكاره ، في نظر القرآن ، إنكار للمعاد نفسه .

الدلائل العقلية :

إذا تجاوزنا عن ذلك ، فإن العقل يقول إن الروح والجسد ليسا حقيقتين منفصلتين ، فهما مترابطان بعض ببعض بالرغم من استقلالهما بعض عن بعض ، فهما يتربيان معاً ، ويبلغان التكامل معاً ، ولا شك إنهما لا يستغنيان بعض عن بعض لإدامة الحياة الخالدة .

وإذا ما انفصلا بعض الوقت في البرزخ (الزمن الفاصل بين الدنيا والآخرة) فإن ذلك لا يمكن أن يكون دائمياً ، فمثلما إن الجسد بغير الروح ناقص ، كذلك الروح بغير الجسد ناقصة . إن الروح هي الآمرة والمحركة ، والجسم هو المطيع وهو آلة التنفيذ ، فما من آمر يستغني عن المأمور ، وما من عامل يستغني عن آلة العمل .

ولكن بما أن الروح تكون يوم القيامة في مرتبة أسمى وأرفع ، فلا بد للجسد أيضاً أن يكون قد تكامل بالنسبة نفسها ، وهكذا سيكون كاملاً ، أي إن الجسد يوم القيامة سيكون خالياً من كل العيوب والنواقص التي كانت فيه في هذه الدنيا .

على كل حال ، فإن الروح والجسد قد ولدا معاً ويكمل أحدهما الآخر ، وإن المعاد لا يمكن أن يكون جسمانياً فقط ولا روحانياً فقط .

وبعبارة أُخرىٰ ، تدل دراسة كيفية ظهور الجسد والروح وعلاقة كل منهما بالآخر على أن المعاد يكون لهما كليهما .

ثم إن قانون العدالة يقول، من جهة أُخرىٰ : إن المعاد

يجب أن يكون لكليهما ، لأن الإنسان الذي ارتكب معصية في الدنيا قد ارتكبها بالجسد والروح معاً ، وإذا كان قد أتى بحسنة فقد أتى بها بهما معاً . وبناء على ذلك فالعقاب والثواب يجب كذلك أن يقعا على الجسد والروح معاً ، إذ لو كان المعاد للجسد بمفرده ، أو للروح بمفردها ، لما تحققت العدالة .

أسئلة حول المعاد الجسماني :

وضع العلماء بعض الأسئلة بشأن المعاد الجسماني نورد بعضها استكمالاً للبحث :

١ ـ تؤكد تجارب علماء العلوم الطبيعية أن جسم الإنسان يتبدل خلال عمره عدة مرات ، فهو أشبه بحوض للسباحة حيث يصب فيه الماء من جهة وينسرب منه تدريجياً من جهة أخرى . وبديهي أن ماء الحوض يكون قد تبدل بعد مدة من الزمن .

وهذا نفسه يحدث بالنسبة لجسم الإنسان ويتم مرة في نحو سبع سنوات . وبناء على ذلك فإن أجسامنا تتبدل عدة مرات خلال أعمارنا .

هنا يتبادر هذا السؤال إلى الذهن : أي هذه الأجساد هو الذي يعود يوم القيامة؟

في الإجابة على هذا السؤال نقول : آخرها ، كما قرأنا في الآيات السابقة التي جاء فيها إن الله يحيي الإنسان من عظامه وتراب جسده الذي دفن تحت التراب . يستفاد من هذا أن جسده الذي مات به هو الذي يحييه الله يوم القيامة . كما إن تعبير :

﴿ . . . وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾

[سورة الحج ، من الآية : ٧]

يعني إنه يبعث الجسد الذي مات ودفن في القبور .

ولكن هذا الجسد الأخير يحمل جميع الآثار والخصائص التي كانت للإنسان في أجساده الأخرى طوال حياته . وبتعبير آخر ، إن الأجساد السابقة التي تتلف تدريجياً تنقل إلى الجسد التالي جميع آثارها وخصائصها . وعليه فإن الجسد الأخير يكون قد ورث جميع صفات الأجساد السابقة ، وبذلك يكون خليقاً بتطبيق قانون العدالة في الثواب والعقاب عليه .

٢ ـ يقول بعضهم : إننا إذا ما أصبحنا تراباً وتحولت ذرات أجسادنا إلى تراب ، وأصبحت هذه غذاء لأنواع النباتات والأشجار ودخلت في الأثمار وأكلها أناس آخرون ، ومن ثم أصبحت أجزاء من أجسادهم ، فكيف تعود هذه إلى الحياة يوم القيامة؟ وهذا هو ما يعبرون عنه في الفلسفة وعلم الكلام بـ « شبهة الآكل والمأكول » .

على الرغم من أن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب الكثير من البحوث ، فإننا سنحاول أن نبسط ذلك بالقدر اللازم ، فنقول :

« ليس هناك شك في ذرات جسد أحد الأشخاص التي غدت جزءاً من جسد شخص آخر تعود إلى جسد صاحبها الأول ، وهذا واضح من الآيات المذكورة سابقاً » .

ولكن المشكلة التي تبرز هنا هي أن جسد الشخص الثاني يصبح ناقصاً . ولكن الحقيقة هي إنه لا يصبح ناقصاً ، بل يصبح أصغر ، لأن تلك الذرات كانت قد انتشرت في جميع أجزاء الجسد ، فعندما استرجعت منه صغر ونحف بنسبة ما أخذ منه .

وعليه فلا الجسد الأول يزول ولا الجسد الآخر ، وكل ما في الأمر هو أن الجسد الثاني يصبح صغيراً ، وليس في هذا مشكلة ، لأننا نعلم إن الأجساد يوم القيامة تتكامل ويزول عنها كل نقص ، بمثلما يكبر الطفل وينمو ، أو كما ينمو لحم جديد بمكان الجرح ، بغير أن تتبدل شخصية الطفل أو الجريح . فالأجساد الصغيرة والناقصة تحشر إلى عالم الكمال يوم القيامة كاملة غير منقوصة .

وهكذا لا تبقى مشكلة بهذا الشأن . فتأمل!

(للمزيد من التوضيح يمكنكم الرجوع إلى كتاب « معاد وجهان پس از مرگ») .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ هل حياة الإنسان يوم القيامة تشبه حياته في هذه الدنيا؟

٢ ــ هل نستطيع أن ندرك في هذه الدنيا كيف يكون الثواب والعقاب يوم القيامة؟ .

٣ ــ هل للنعم في الجنة وللتعذيب في الجحيم جوانبها الجسمية فقط؟ .

٤ ــ ما المقصود من تجسد الأعمال ، وكيف يستدل القرآن عليها؟ .

٥ ــ ما المشكلات التي يحلها الاعتقاد بتجسد الأعمال في بحث المعاد؟

* * *

الدرس العاشر

الجنة والنار وتجسد الأعمال

كثيراً ما يتساءل الناس : هل عالم بعد الموت يشبه هذا العالم ، أم أنهما مختلفان؟ ماذا عن الثواب والعقاب والقوانين السائدة فيه ، هل هي مثل ما في هذه الدنيا؟

نقول في الجواب : إن هناك شواهد كثيرة تدل على أن العالم الآخر يختلف كثيراً عن هذا العالم ، بحيث إن ما نعرفه عن العالم الآخر يجعله يبدو لنا كالشبح الذي نراه من بعيد .

يحسن بنا أن نعود إلى مثال « الجنين » الذي ضربناه من قبل ، فبالقدر الذي يوجد من بعد بين « عالم الجنين » وهذا العالم يكون البعد بين عالمنا هذا والعالم الآخر ، أو أكثر .

ولو كان للجنين في الرحم عقل وأراد أن يكون له تصور صحيح عن العالم الخارجي بالنسبة له ، عن السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والغابات والبحار، لاستحال عليه ذلك. فالجنين الذي لا يتعدى عالمه رحم أمه المحدود ، لا

يمكن أن تعني الشمس والقمر والبحر والأمواج والرياح والنسائم والزهور ومختلف مظاهر الجمال في عالمه الخارجي أي مفهوم محدد بالنسبة له . إن قاموسه اللغوي لا يتعدى بضع كلمات ، ولو أن أحداً شاء أن يكلمه من خارج رحم أمه (بالفرض) لما فهم منه كلاماً .

فاختلاف عالمنا المحدود هذا مع العالم الواسع الآخر يكون بهذه النسبة أو أكثر . وعليه ، فليس بإمكاننا أن نحمل أي تصور عما هناك من نعم ونقم وجنة ونار وغير ذلك .

وقد جاء في حديث شريف عن الجنة :

« فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وقد جاء هذا المعنى نفسه في القرآن الكريم ، إذ يقول :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ١٧]

كما إن النظم السائدة هناك مختلفة عما في هذا العالم أيضاً ، فمثلاً ، الشهود على أعمال الإنسان وأفعاله هم أعضاؤه ، يده ورجله وجلده وحتى الأرض التي ارتكب العمل عليها . يقول القرآن :

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة يس ، الآية : ٦٥]

﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾

كان تصور هذه المسائل غير متيسر في الماضي ، ولكن بعد تقدم العلوم امكان تسجيل المشاهد والأصوات لم يعد هناك ما يدعو إلى العجب . على نل حال ، على الرغم من أننا ما نزال غير قادرين على أن نرى من شؤون العالم الآخر سوى ما يشبه الشبح البعيد ، ولكن الذي ندريه هو أن العقاب والثواب في العالم الآخر يشملان الجوانب الروحانية والجسمانية ، وذلك لأن المعاد يشمل كلا الجسم والروح .

يقول القرآن :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَٰبِهاً وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة، الآية : ٢٥]

وفيما يتعلق بالمثوبات المعنوية يقول القرآن :

﴿ ... وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ... ﴾

[سورة التوبة ، من الآية : ٧٢]

نعم ، إن إدراك أهل الجنة أن الله راض عنهم وأن خالقهم قد تقبلهم يخلق فيهم إحساساً بالفرح والبهجة واللذة لا يمكن أن يقارن به شيء . كما أن أهل النار يحسّون، بالإضافة إلى العذاب الجسماني ، بغضب الله ورفضه لهم ، وهو أشد من كل عذاب .

تجسد الأعمال :

يستفاد من كثير من الآيات القرآنية أن أعمالنا يوم القيامة

تتجسد حية في صور مختلفة وتصاحبنا ، وأن واحداً من أنواع العقاب والثواب المهمة هو هذا التجسد نفسه . فالظلم يتجسد بصورة سحابة سوداء تحيط بالظالم ، كما جاء في حديث شريف :

« الظلم هو الظلمات يوم القيامة » .

وجاء في القرآن :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٠]

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ [سورة الحديد، من الآية : ١٢]

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ . . . ﴾ [سورة البقرة ، من الآية : ٢٧٥]

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ . . . ﴾ [سورة آل عمران ، من الآية : ١٨٠]

وهكذا سائر الأعمال الأُخرىٰ تتجسد بما يناسبها .

إننا نعلم اليوم أن العلم يقول :

المادة لا تفني ، وإنما هي تتغير من مادة إلى طاقة . فالافعال والأعمال التي لا تخرج عن هاتين الحالتين ، تبقى خالدة أبداً .

إن في القرآن آية صغيرة عن يوم القيامة تهز الإنسان هزاً :

« ووجدوا ما عملوا حاضراً » .

والحقيقة ان كل ما يصيبهم إنما هو بسبب أعمالهم ، ولذلك يضيف إلى قوله :

﴿ . . . وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [سورة الكهف ، من الآية : ٤٩]

وفي موضع آخر من القرآن نقرأ عن يوم القيامة :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة ، الآيات : ٦ ـ ٨]

لاحظ أن الكلام يدور على «رؤية» الأعمال .

إذا قلنا إن أعمالنا في هذه الدنيا ، صغيرها وكبيرها ، وحسنها وسيئها ستبقى محفوظة ولا تفنى ، وستكون معنا يوم القيامة فإن ذلك لا بد أن يكون انذاراً لنا جميعاً لكي نتجنب الأعمال السيئة ، ونعمل الصالحات أكثر .

من العجيب ان هناك اليوم أجهزة قد اخترعوها تستطيع أن تجسد لنا جانباً من هذا الموضوع في هذه الدنيا . يقول أحد العلماء المعاصرين :

« لقد أمكن استعادة الأمواج الصوتية التي صدرت قبل ألفي سنة من العمال المصريين الذين كانوا يشتغلون بعمل الفخار ، بحيث يمكن سماعها . ففي المتحف المصري أوان فخارية صنعت قبل ألفي سنة على الأجهزة اليدوية الخاصة بذلك . وفي

أثناء صنعها انتقلت الأمواج الصوتية من أيدي العمال إلى تلك الأواني . واليوم استطاع العلماء أن يعيدوا الحياة إلى تلك الأمواج بحيث إننا نسمعها بآذاننا » .

على أيّ حال إن كثيراً من الأسئلة التي تدور حول مسألة المعاد والخلود وعقاب المسيئين وثواب المحسنين الواردة في القرآن المجيد ، يمكن أن يجاب عليها بأخذ عملية «تجسيد الأعمال» بنظر الاعتبار، وذلك باعتبار أن كل عمل حسن أو سيء يترك أثره في أرواحنا ، وأن ذلك الأثر باق معنا لا يفارقنا .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ هل تشبه حياة الإنسان يوم القيامة حياته في هذه الدنيا من جميع النواحي؟

٢ ـ هل نستطيع أن نفهم تماماً في هذه الدنيا ما في يوم القيامة من ثواب وعقاب؟

٣ ـ هل النعم في الجنة والعذاب في النار جسمانية فقط؟ .

٤ ـ ما المقصود بتجسد الأعمال ، وما الأدلة القرآنية على ذلك؟ .

٥ ـ كيف يجيب الاعتقاد بتجسد الأعمال عن الأسئلة التي تسأل حول موضوع المعاد ؟

* * *

الفهرست

القسم الرابع

معرفة الإمامة

الموضوع | **الصفحة**

الدرس التاسع

الدرس العاشر

القسم الخامس
معرفة المعاد

الدرس الأول

الدرس الثاني

الدرس الثالث

الدرس الرابع

الدرس الخامس

الدرس السادس

الدرس السابع

الدرس الثامن

الدرس التاسع

الدرس العاشر